بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 07 غشت 2023

المنطق المعاصر والمسألة الأنطولوجية

محمد الشقيف
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2023
All rights reserved © 2023

موجز البحث:

ساهم النظر في الاعتبارات الأنطولوجية في تطور المنطق منذ نشأته، ولئن كان ذلك يظهر في الحقبة المعاصرة أكثر ظهور، إلا أنه كان حاضرا منذ إنشاء المنطق النشأة الأولى، حتى ذهب البعض إلى التساؤل: عندما قعَّد المعلّم الأول المنطق ونظَّمه، هل كان يحسبه آلة لنظام التمثيل فقط (اللغة والفكر) أم كان يعدُّه ضابطا لنظام الوجود أيضا؟ بعبارة أخرى: هل تُنتظر من المنطق الوظيفة الإبستيمولوجية وحدها، أم إنه يتجاوز هذه ليؤدي الوظيفة الأنطولوجية أيضا؟

ينصرف نظري في هذا البحث إلى حضور المسألة الأنطولوجية في الدراسات المنطقية والدلالية المعاصرة مبتغيا بذلك ثلاثة أمور: أولها، بيان المشكلات التي يثيرها هذا الحضور في العتبات الثلاث (أعني الأنطولوجية والدلالية والمنطقية)، والثاني هو تقرير النتائج المنطقية المترتبة عن محاولات حل هذه المشكلات، والثالث هو إبراز مدى اتساع صدر المنطق الكلاسيكي لمحاولات حل هذه المشكلات. وغرضي في الأخير أن أوضح كيف أن **الاشتغال بالمسألة الأنطولوجية منطقيا** قد ساهم في زيادة الضغط على النسق المنطقي العتيد (في طوره الأرسطي كما في صورته المعاصرة) بما أسفر عن ميلاد أنساق منطقية جديدة، جعلها تمسُّكُها بالاعتبارات الأنطولوجية تُوسِّع أسس هذا النسق أحيانا وتنحرف عنها في أحيانا أخرى، بطريقة أو بغيرها وإلى حد أو إلى آخر. ويعتبر «المنطق الحر» الثمرة الأكثر نضجا من ثمرات هذا التطور وإن كان النظريةَ الأشهر بين نظريات المنطق الفلسفي **المتحررة** من اعتبارات الوجود واللاوجود.

مقدمة

يُحكى أن مؤسسة تعليمية نظَّمت رحلة مدرسية إلى الجامعة لفائدة الأطفال المتفوقين، فاستكشفوا إحدى الكليات بما فيها من مرافق؛ مدرجات وقاعات دروس ومختبرات بحث وورشات تدريب، كما زاروا مكتبة الكلية وأجنحتها الإدارية، واختتموا زيارتهم بمشاهدة مباراة كرة قدم في المركب الرياضي الجامعي. حتى إذا انتهى الأمر بمنظمي الرحلة إلى إخبار أطفالهم بأوان وقت العودة سأل أحدُ الصغار: ولكن أين هي الجامعة؟ لقد أريتمونا هذه المرافق والناس الذين يشتغلون فيها ولكننا لم نر الجامعة بعد![1] هل يكفي هذا الصغيرَ أن نخبره بأن الجامعة ليست مؤسسة أخرى تنضاف إلى كل ما رآه أو مؤسسة تختفي خلف الكليات وما عاينه فيها، وإنما هي مجموع تلك الكليات؟ فربما أجاب من يخبره بذلك بأنه لم ير حتى الكلية! أو هل ينفع أن نخبره أن الجامعة هي مجرد الطريقة التي نرى بها كل ما شاهدناه أو الكيفية التي ننظِّم بها كل ما وجدناه، أو الكلمة التي نعبِّر بها عن كل ما عايناه؟ فقد يزيده ذلك غموضا واضطرابا. ولكن حيرته ستزيد ولا شك إن قال أحدهم إن الجامعة ليست شيئا ماديا من العالم الواقعي المحسوس، بل كيانا مجردا تخلقه عقولنا فلا يستقل بوجوده عنها. لقد واجه هذا الصغير مشكلة أنطولوجية تُلقي بنا أسئلتُها أمام مفارقات دلالية وإحراجات منطقية شتى، وليست الكليات إلا مثالا واحدا لتجلياتها، أقصد الأسئلة التي نلفي حين التفكير في «كيانات أو أشياء أو موضوعات غير موجودة» وحين الحديث عنها، أسئلة نركزها في ما يلي: ما هو الوضع الأنطولوجي للموضوعات غير الموجودة؟ وما هو الوضع الدلالي للأسماء الدالة عليها؟ وما هو الوضع المنطقي للقضايا التي تشير إليها؟

1- استعرت روح هذا المثال من جلبرت رايل لأوظفه توظيفا مختلفا عما رمى إليه به في كتابه:

Gilbert Ryle, *The Concept of Mind*, Routledge, London and New York, 2009, p. 6

1- المشكلة الأنطولوجية بحدود دلالية منطقية: في الموضوعات التي لا توجد

دشن لودفيج فتجنشتين Ludwig Wittgenstein (1889-1951) رسالته المنطقية الفلسفية بالزعم أن «العالم هو كل ما هنالك»، ولكن ماذا هنالك؟ هنالك الوقائع، فهي مجموع ما يتألف منه العالم وإلى الأبسط منها ينتهي تحليله. أما الأشياء وإن كانت تشكل جوهره، فهي لا تتمتع بوجود مستقل ولا توجد إلا وهي أجزاء من وقائع معينة.[2] أما ويلارد كواين Willard V. O. Quine (1908-2000)، فقد وجد الجواب أبسط؛ فـ«هنالك ما هنالك» وهو ما يعني «هنالك كل شيء».[3] والحق أن أجوبة مثل هذه قد أبقت المشكلة الأنطولوجية مفتوحة على الدوام؛ وذلك لسببين: الأول هو أنها قصرت المسألة الأنطولوجية في حدود ما يوجد، والثاني أنها كثيرا ما اختزلت معنى «الموجود» في حدود معنى «العيني والفيزيائي»، والحق أن رسم حدود هذا العيني ذاته لم يزل يثير مشكلات لا قِبل للفكرين الفلسفي والعلمي بها. ولئن كانت مناقشة أنطولوجيَا الموضوعات العادية المؤلِّفة للعالم الواقعي الفيزيائي العيني تثير مشكلات بهذه الصعوبة، فإن التنقير على أنطولوجيَا الموضوعات غير العادية أو غير الموجودة[4] يثير مشكلات بمعضلات أكبر.

وفي تعبير يفتقر لبعض الدقة، نقصد بـ«**الموضوعات غير الموجودة nonexistent objects**» كل ما يمكننا استدعاؤه بطريقة أو بأخرى إلى مجالي الفكر واللغة دون أن نزعم وجوده، حتى أن البعض منا يتردد في دعوته «شيئا»، ويشك في صواب مناداته «موضوعا»، من قبيل الكليات بمختلف أنواعها

2- Ludwig Wittgenstein, *Tractatus Logico-Philosophicus*, translated by C. K. Ogden, Routledge, London, 1981, 1- 2

3- Willard V. Quine, "On What There Is", *The Review of Metaphysics*, Vol. 2, No. 5 (Sep., 1948), 21-38, p.21

4- لا جدال أن ألفاظ «الوجود» و«الموجود» و«غير الموجود» كثيرا ما تستعمل في الحمل predication بغموض والتباس كبيرين، ومردُّ ذلك إلى أن الأمر يتعلق بمفاهيم فلسفية خلافية غير مُتواضع على معانيها على نحو دقيق وغير مُتفق على الحدود الفاصلة بين ما يدل عليه لفظ «يوجد» وما يدل عليه لفظ «لا يوجد»، وربما أسند فيلسوف المحمول «موجود» للإخبار عن موضوع يجد فيلسوف آخر أنه أحق الموضوعات بالمحمول «غير موجود»، ولا يكون ذلك راجعا إلى محض اختلاف الفيلسوفين (ليكن هما فريدريك هيجل وبرتراند راسل مثلا، حول موضوع هو «الروح») بصدد ما إن كان هذا الموضوع جزءا من العالم المادي أو الفيزيائي أم لا وإنما يكون راجعا إلى أن ما يفهمه كل واحد منهما من المحمول «موجود» مختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الآخر منه. وتلافيا لهذا الغموض، ولأن موضوعي هنا ليس هو تحصيل معنى كلمة «الموجود» أو «غير الموجود»، فإني أستعمل لفظ «الموضوع الموجود» بمعنى «ما يشكل جزءا من العالم الفيزيائي ويشغل حيزا في الزمان والمكان (الآن أو حتى فعل ذلك في الماضي)، سواء كان شيئا (الكرسي الذي أجلس عليه) أو كيانا ماديا أكثر تركيبا (مدينة فاس) أو كان شخصا (سقراط) أو حيوانا (قطي هذا) أو غيره مما نتصل به اتصالا مباشرا، أو كان مما نعدُّه من العالم الفيزيائي ولكننا لا نستطيع الاتصال به مباشرة (نواة الأرض أو الكوكب الأبعد عنها). لنقل تبعا لهذه المواضعة إن الموضوع الموجود هو المتحقق فعلا في العالم الواقعي، وبالمقابل فإن الموضوع الذي غير الموجود هو كل ما ليس متحققا في هذا العالم فلا يشغل حيزا في الزمان والمكان.

كالدولة والأخلاق والثقافة، والمُثل الفلسفية كالحق والخير والجمال، والكيانات[5] الرياضية كالأشكال الهندسية والأعداد والمجموعات والعلاقات، والكيانات اللغوية والعقلية كالأفكار والمعاني والدلالات، والكيانات الأسطورية والخيالية والتخييلية كزيوس والجبل الذهبي وفرانكنشتين.[6] وإن أول شاهد على تعقيد المشكلة الأنطولوجية في هذا المستوى هو أنها تُعجزنا حتى على صياغتها في سؤال واضح دال عليها: ماذا هنالك what is there؟ أم ماذا يوجد what there exists؟ أهما سؤالان مترادفان أم إن إنشاء الترادف بينهما مغالطة؟ ماذا نقصد بوجود الموضوع؟ وهل يتَّسق الحديث عن «موضوع غير موجود»، أم إن «مفارقة عدم الوجود» واقع لا يرتفع؟ ما طبيعة الخلاف الأنطولوجي بصدد الموضوعات المفتقرة للوجود، أهو موضوعي أم لغوي دلالي فحسب؟ هل يمكن توسيع قائمة الموضوعات دون الخروج عن حدود العالم الواقعي (أو الفعلي) إلى عدد غير محدود من العوالم الممكنة؟

أ- نظرية الموضوعات: هناك مربع دائري!

من بين كل النظريات المعاصرة التي التفتت إلى المشكلة الأنطولوجية بحدود منطقية دلالية، تُعدّ نظرية أليكسيوس مينونغ Alexius Meinong (1853-1930) الأسوأ سمعة (يرجع ذلك من جهة إلى وقوعها ضحيةَ سوء فهم غذَّاه تغلغل الفلسفة الواقعية المحدثة بين مناطقة ودلاليي المنعطف اللغوي في الحقبة المعاصرة، كما يرجع من جهة ثانية إلى استهدافها بنقد نفاذ من فلاسفة برعوا في المحاجة والاستدلال، وفي مقدمتهم برتراند راسل وويلارد كواين وجلبرت رايل)، ولكنها مع ذلك الأكثر شهرة وانتشارا بين من اشتغلوا بالمشكلة جميعا. أثبتَها الرياضي النمساوي في مقاله الأشهر «**نظرية الموضوعات The theory of Objects**» الذي اجترح فيه معنى خاصا للفظ «الموضوع» لم يكن مألوفا في الأدبيات الفلسفية والمنطقية خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ولا بين الفلاسفة السابقين، ورتَّب على هذا المعنى نتائج خاصة تتوزع بين الأنطولوجي والدلالي والمنطقي: فعلى المستوى **الأنطولوجي**، ميَّز الفيلسوف بين مراتب كينونة الموضوع وزاد على ذلك ترتيب صور عدم كينونته، وكان مرامه أن يبين أن الوجود والكينونة غير داخلين

5- يمكن أن نأخذ لفظ «كيان entity» هنا عموما بالمعنى الذي أخذه به رودريك شيشولم في حديثه عن «**الكيانات التابعة أنطولوجيا**» عندما ميز بين أربعة أنواع أساسية من الكيانات وهي: أ- الأوضاع أو الأحوال states، وهي مختلف الحالات التي تأخذها الأشياء، إما تُلازمها أو تكون لها بين وقت وآخر فتنشأ بذلك وقائع معينة، ككون جسمي **دافئا** وكون هذا القضيب المعدني **ملتويا**. ب- المحتملات أو الأفراد العرضيون contingent individuals، وهي مختلف الأشياء التي قد توجد أو تتمتع بكينونة وقد لا يكون لها ذلك، مثل الطفل الذي ينتظر زوجان بناءً على تقرير طبي يرجح حدوث حمل لدى الزوجة، ومثل الثمرة التي أنتظر من شجرة الزيتون التي توجد أمام بيتي في فصل الخريف بناء على إزهارها في فصل الربيع. ج- المجردات abstracta، وهي كل الكيانات التي لا تتمتع بأي وجود فعلي، سواء تعلق الأمر بأفكار أو كيانات رياضية أو متخيلات أو علاقات أو ما شابهها، كالمستقيم والفكرة والبياض. د- الواقعات أو الجواهر الضرورية necessary substances، وهي الجزئيات (بالمعنى الذي أعطاه راسل للفظ «جزئي») والأفراد الواقع وجودها فعلا بحيث تشكل جزءا من العالم الفيزيائي، كجسمي وبرج إيفل وكوكب الأرض. يمكن العودة إلى:

Roderick M. Chisholm, "Ontological Entities", *Philosophy and Phenomenological Research*, Vol. 54, No. 3 (Sep., 1994), pp. 499-507

6- لا يختلف الأمر بين هذه الموضوعات على المستوى الأنطولوجي، لذلك لن أفرد للتمييز بينها تفصيلا، وذلك بخلاف الحال على المستويين الإبستيمولوجي والدلالي. فعندما أقول «كل الأعداد الصحيحة الموجبة أكبر من الصفر» فإني أعتقد في صدق القضية المعبَّر عنها، بينما لا أفعل ذلك (حرفيا) عندما أقول «شيرلوك هولمز يحب التباهي بذكائه»، رغم أن الموضوعين «الأعداد الموجبة الصحيحة» و«شيرلوك هولمز» معا لا يوجدان وجودا واقعيا؛ فالأول كلي والثاني شخصية تخييلية. وسيتضح هذا التمييز أكثر في الشق الثاني من هذا المقال.

في طبيعة الموضوع. وأما على المستوى **الدلالي**، فقد اقتاده تحديده لمفهوم «الموضوع» إلى التساؤل عن حدود معاني الألفاظ المفردة الدالة على تلك الموضوعات ودلالات القضايا الداخلة في تركيبها. وأما على المستوى **المنطقي**، فقد اضطره هذا التحديد إلى النظر في أثره على القوانين المنطقية الكلاسيكية عامة، وقانوني عدم التناقض والثالث المرفوع خاصة. وسأنصرف في الشق الأول من هذا المقال إلى المستوى الأول، على أن أتجرد في شقه الثاني للمستويين الآخرين متصلين.

ليس **الموضوع Object** عند مينونغ هو الأشياء والوقائع الموجودة وجودا عينيا أو فيزيائيا فحسب، ولا حتى يكفي أن تُضاف إلى هذه الكياناتُ المجردةُ التي دأب الناس على اعتبارها أشياء حقيقية، إنما الموضوع كلُّ ما تتوجه إليه قصديتنا، سواء كانت قصدا أو معرفة أو اعتقادا أو حكما أو رغبة أو رجاء أو ذكرى أو خوفا أو غير ذلك مما تتوجه به الذات الإنسانية صوب ذاتها والعالم من حولها والآخرين؛ أنا وأنتم والأرض التي نحيى عليها والأشياء التي تدب فوقها والعلاقات التي تربطنا والأزمنة والأمكنة التي نعيش فيها والأفكار التي ننشئها والإله الذي نعبد (أو الآلهة التي يعبد بعضنا) والكوابيس التي تعكِّر أحلامنا والأشباح التي لم نزل نخيف بها صغارنا. فـ»كل شيء يمكن أن يشتغل به التفكير إنما هو **موضوع**. وهذا يضم كل الموضوعات التي تُصورت، بالإضافة إلى تلك التي كان ممكنا تصورها ولكنها لم تكن محظوظة بما يكفي لتثير انتباه أحد».[7]

ولئن لم يكن مُستغربا أن يزعج هذا التحديد البعضَ من ذوي النزوع الواقعي أو المادي المعتقدين أن الصِّفر والأبقار اللاحمة وأحاديات القرن لا توجد -فكيف لها أن تكون موضوعات وهي لا توجد؟!- مدفوعين بانحيازهم للعيني وإفراطهم في الركون للفعلي، فإن المستغرَب حقّا هو أن نجد هذا الانحياز لدى بعض المشتغلين بعلوم يُفترض فيها تناول الموضوعات بعيدا عن وجودها أو عدم وجودها، وفي طلعة هذه العلوم الميتافيزيقا. وربما كان التدليل على جدارة إطلاق صفة «الموضوع» على كل شيء بصرف النظر عن وجوده أو عدم وجوده كفيلا برفع الوهم القائم عليه ذلك التحيز من جهة، وبيان الحاجة إلى علم جديد خاص بالموضوعات من جهة ثانية.

إن أول الأدلة وأعمَّها أن فعل المعرفة Knowing يستحيل ما لم يكن هناك شيء يُعرف، فلا ينازع منازع أن التصورات والأحكام (وما يتصل بها من أفعال معرفة أخرى كالتمثل والتذكر والتأمل والتحليل والتركيب وما شابهها) تتعذر ما لم تكن تصوراتٍ لموضوعات وأحكامًا على موضوعات.[8] وليست أفعال المعرفة وحدها المشروطة بموضوع تتوجه إليه، فالحق أن جميع الأفعال القصدية متوقفة على ذلك؛ نحن

7- Terence Parsons, "A prolegomenon to Meinongian Semantics", *The Journal of Philosophy*, Vol. 71, No. 16 (Sep. 19, 1974), 561-580, p. 561-562

8- Alexius Meinong, "The theory of objects", (translated by Isaac Levi, D. B. Terrell, and Roderick M. Chisholm), In: *Realism and The Background of Phenomenology*, ed. Chisholm, Roderick M. Illinois: The Free Press of Glencoe, 1960, 76-117, p.76

نسعد لشيء ما، ونهتم بشيء ما، ونتمنى شيئا ما، ونعزم على شيء ما، ونتكلم عن شيء ما، فكل هذه أفعال (أو أحداث نفسية مثلما يصفها مينونغ) تقتسم سمة كونها **موجَّهة إلى شيء ما** بشكل يجعلها إحالات عليه بطريقة أو بأخرى، بل وعلى نحو يجعل الموضوع الذي تتوجَّه إليه يفرض نفسه على انتباهنا وإلا تعذَّر الفعل القصدي ذاته.

ولكن الأفعال القصدية لا تتوجه دائما إلى أشياء أو موضوعات موجودة فحسب، بل تتجاوزها إلى ما لا يوجد أيضا، لنقُل إن هذه الأفعال لا تبالي بوجود الموضوع أو عدمه وإنما تتوجه إليه **بما هو موضوع لها** فحسب. هذه هي المسلمة الأساسية الأولى (أو المبدأ الأول) التي يجب أن يقوم عليها علم الموضوعات، وبدونها تغدو الكثير من العلوم بلا موضوعات حقيقية. فرغم أن الأشياء التي نلفيها في عالمنا الواقعي قد تكون مُثلَّثة أو مربَّعة أو دائرية أو مستطيلة أو غير ذلك، فإن **الشكل الهندسي** الذي تُعنى به الهندسة غير موجود، ولكنه موضوع حقيقي. ورغم أننا نعدُّ الأشياء التي نتصل بها إما شيئا واحدا أو اثنين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك فإن **العدد** ذاته الذي يُعنى به علم الجبر لا يوجد، ولكنه موضوع حقيقي. ورغم أننا نصنِّف الأشياء الموجودة تحت فئة الإنسان أو الطيور أو المعادن أو غيرها إلا أن **الفئة** ذاتها لا توجد، ولكنها موضوع حقيقي. وبالمثل، فإن **المجموعة** لا توجد بالإضافة إلى العناصر الداخلة فيها، وإن **الارتباط** (أو العلاقة) لا يوجد بالإضافة إلى الأشياء المترابطة، ولكننا إن أنكرنا على هذه الموضوعات صفة كونها موضوعات لم يعد للرياضيات موضوع. ولا يختلف الأمر في الفيزياء عند الحديث عن الزمان والمكان، وفي علم وظائف الأعضاء حين الإحالة على اللون والصوت، وفي علم النفس عند الكلام عن الأنا والهو، وفي الفلسفة حين الحديث عن الروح والفيض، وفي علم الاجتماع عند الكلام عن الطبقة الاجتماعية والأسرة، ويمكننا أن نقيس على هذه علوما أخرى كثيرةً المشتركُ بينها أنها تشتغل بموضوعات غير موجودة وجودا فيزيائيا محايثا للعالم الواقعي، ولكنها موضوعات حقيقية. يعني كل ذلك أننا ما أن نحيل على الموضوع لا نقصد به ما يوجد حصرا، وإنما نعني **الموضوع الخالص**، أو **الموضوعَ بما هو موضوع**، أو **الموضوع بإطلاق**، أو **الموضوع بعيدا عن كينونته أو عدمها** beyond its being or nonbeing، يعزز ذلك أن «مجموع ما يوجد، بما في ذلك ما كان موجودا وما سيوجد، ضئيل إلى أبعد الحدود مقارنة بمجموع موضوعات المعرفة. ولكن هذه الحقيقة تمر مرور الكرام ولا يُلقى لها بال، ربما بسبب الاهتمام الشديد بالواقع reality والارتباط به (وذلك جزء من طبيعتنا) حتى ينحو بنا إلى الركون إلى تلك المغالاة التي تضع كل ما ليس واقعيا the non-real في خانة اللاشيء».[9]

تقوم نظرية الموضوعات إذن، على دعوى أولى أساسية هي أن هناك موضوعات حقيقية مفتقرة للوجود، ويمكنني إعادة التعبير عن هذه الدعامة بالقول إن الوجود ليس مكونا من مكونات الموضوع بما

9- Ibid., p. 79

هو موضوع ولا شرطا ضروريا وكافيا لقيامه. وقد أقام عليها مينونغ دليلين مترابطين[10]؛ أولهما أن المعرفة وغيرها من أشكال القصدية لا تكون ممكنة إلا إذا توجهت إلى موضوع، والحال أن الكثير من هذه الأشكال يتوجه إلى موضوعات لا توجد. والثاني، أن الحكم بعدم وجود شيء مشروطٌ أولا بأخذ هذا الشيء كموضوع للحكم، بل حتى لو أنكرنا عليه صفة «موضوع» لا بد أن نأخذ به مقدَّما كموضوع لحكمنا، كما لو كانت **موضوعية** الموضوع معطى قبليا يسبق تحديدنا لكينونته أو عدم كينونته ومختلف أحكامنا عليه، كما لو كان هذا «الانعطاء أعم خاصية للموضوعات، يمكن أن ينسب لها بدون استثناء، سواء كانت أم لم تكن».[11]

أما الدعوى الأساسية الثانية في هذه النظرية، فهي أن أحوال الموضوعات وخصائصها مستقلة عن وجودها أو عدمه، فهي لها سواء كانت موجودة أم لم تكن. ويمكنني إعادة التعبير عن هذه الدعامة (مستعيرا لغة فتجنشتين المتقدم بما لا يتسق مع نظريته) بالقول إن عدم وجود الموضوع لا يمنع أن تتركب منه واقعة سالبة هي أنه لا يوجد، فتلك أولى صفاته. أنت ترى عدم وجود المستقيم لا يمنع من الحديث عن طوله، وعدم وجود العدد لا يمنع من الحديث عن كونه موجباً أو سالباً، وعدم وجود هاملت لا يمنع من القول إنه شخصية تخييلية أبدعتها مخيلة شكسبير. فلئن لم يكن ممكنا القول عن جميع الموضوعات إنها توجد، فإنه يمكن القول عنها جميعا إنها بهذا الحال أو ذاك كائنة كانت أم لم تكن، وهذا هو المبدأ الثاني في نظرية مينونغ يدعوه «مبدأ استقلال أحوال الموضوعات عن كينونتها».[12]

يمكن تعريف نظرية الموضوعات إذن، بأنها العلم الذي ينظر في الموضوعات وفي أحوالها وفي علاقاتها بعيدا عن كينونتها وعدم كينونتها. وإذ يجد في كثير من العلوم نقائض لمبدأيه الأساسيين، فإنه يعثر في أخرى على النواة التي تلتئم فيها عناصره، وأوضح هذه العلوم الميتافيزيقا والرياضيات. فرغم أن الأولى لم تتخلص تماما من التحيز للفعلي والارتهان بالعيني والمغالاة في اختزال «الموضوع» في «الواقعي»، فإنها «لم تزل تُتصور على أن دائرة اهتمامها تضم من موضوعات التفكير الأقرب والأبعد والأعظم والأضأل على حد سواء، لذلك قد نتفاجأ مستغربين إن قيل لنا إن الميتافيزيقا تعجز عن النهوض بمهمة من هذا القبيل، وإنها ليست كلية بما يكفي لتكون علما للموضوعات a science of Objects؛ فالحال أنها قد أخذت على عاتقها في الأصل أن تكون كلية».[13] أما الرياضيات، باعتبارها العلم الأكثر تطورا، ورغم أننا نقر جميعا بمجال تطبيقها الواسع في الحياة العملية ولا ننكر ارتباطها الوثيق بالواقع، فإن المعرفة الرياضية الخالصة لا تشترط مطلقا أن يكون الشيء فعليا actual. إن صورة الكينونة التي تشتغل بها الرياضيات

10- وقد أضاف بعض شراح نظرية مينونغ أدلة أخرى، منها ما ذهب إليه تيرانس بارسونز من أن «الدليل الذي يدعم المنظور القاضي أن هناك أشياء لا توجد هو أن الأشياء التي نعتقد فيها ولدينا عليها أدلة جيدة تستلزم هذا وتقتضيه». انظر:

Terence Parsons, "Are there nonexistent objects?", *American Philosophical* Quarterly, Vol. 19, No. 4, October 1982, p. 365

11- Meinong, The Theory of Objects, op. cit., p. 91

12- Ibid., 82

13- Ibid., 79

بما هي رياضيات ليست أبدا هي الوجود Existenz، وإنما هي صورة لا تتجاوز حدود ما هو قائم فحسب Bestand.[14]

حتى إذا اتضح أن الموضوعات الموجودة لا تمثل إلا جزءا ضئيلا للغاية من المجموع الكلي للموضوعات، وتبيَّن كم هو مفتقر للدقة اعتبار نظرية الموضوعات علما للفعلي a science of the actual أو علما للكينونة a science of being، أمكننا تصنيف الموضوعات التي يشملها هذا العلم أصنافا: فإن الموضوع إما موجود وإما غير موجود، وإن الموضوعات التي لا توجد إما كائنة (أو قائمة) وإما غير كائنة إطلاقا، وإن الموضوعات غير الكائنة إما ممكنة وإما مستحيلة، وسواء كانت غير الكائنة ممكنة أم مستحيلة، فإنها إما تامة وإما غير تامة. فلننظر في هذه الصنوف حتى نتبين بنية الأنطولوجيا التي ابتغى مينونغ إقامة نظريته عليها، فإن تحقق لنا ذلك اتضحت بيسر النظريات الدلالية والمنطقية التي نشأت على أساسها. والحق أن جل النظريات التي تناولت الوضع الأنطولوجي للموضوعات غير الموجودة والوضع الدلالي للألفاظ الدالة عليها إنما انطلقت من مذهب مينونغ بطريق أو بآخر، فإما آلت إلى نفس ما آلت إليه نظريته، وإما انتهت إلى ما يخالفها أو يعارضها.

لا تحتاج «الموضوعات الموجودة existent objects» إلى تعريف أو ضرب مثل، فهي كل متعيِّن فعلي يتألف منه العالم الواقعي أو الفيزيائي ويقتضي حيزا زمانيا ومحلا مكانيا يوجد فيهما، فلا يشك أحد في كونه شيئا حقيقيا؛ لأن حواسنا تحيط بوجوده قبل عقولنا[15]؛ ذلك الذي سماه المناطقة القدامى «الفرد» و«الجوهر الأول» وسماه المتأخرون «الشيء أو الموضوع» على سبيل الحصر ومنه رأوا وقائعَ العالم متألفة؛ جسمي وحاسوبي هذا والكتاب الذي أمسك والبيت حيث أقيم والقمر الذي ينير السماء ليلا وكل الأشخاص الذين يعيشون على الأرض وما شابه هذا. لنقل إن الحكم بوجود موضوع يعني الحكم بأن هناك **فردا** في العالم.

وأما «الموضوعات غير الموجودة nonexistent objects»، فهي كل ما لا نجده متعينا في العالم الواقعي ولا ينتمي إلى بناء وقائعه ولكننا نستطيع التفكير فيه أو إنشاء أحكام بصدده والتعبير عنها في قضايا قابلة للبت فيها بالصدق أو بالكذب. ويمكننا القول عن بعض هذه الموضوعات إنها كائنة (قائمة غير موجودة subsistent) بينما لا يمكن أن يقال عن بعضها الآخر ذلك إطلاقا، ولكن المشترك بين موضوعات النوعين معا أنها محض كيانات مجردة غير متحققة (في مجموعها) في أي فرد من أفراد العالم.

14- Ibid., 80

15- حتى إنك عندما تحيل على الواحد منها بلفظ لا يكون أمام من يتلقى قولك مجرد أن يفهم معنى ما تقول، وإنما أيضا حظُّ رؤية ذلك المعنى متجسدا في الموضوع أمامه (مباشرة أو بتوسط واسطة) وليس فقط تمثيله من خلال الكلمة وما عليه تدل.

أما «الموضوعات القائمة subsistent objects»، فهي كل لمجرَّدات التي لا تقتضي حيزا زمانيا ومحلا مكانيا تقيم فيه، أو هي كل الموضوعات المثالية غير المستقلة بذاتها عن الذات المفكرة، تلك القائمة مثلا في عالم العقل دون العالم الواقعي، مثل الكيانات الرياضية التي تشتغل بها الهندسة أو علم الحساب، كالمستقيم والضلع والزاوية والشكل الهندسي والعدد والمجموعة والعلاقة واللانهاية، ومثل المُثل الفلسفية التي تشتغل بها الميتافيزيقا والأخلاق وعلم الجمال، كالحقيقة والخير والجمال ونقائضها، ومثل الكيانات التي يتعامل معها المنطق وعلوم اللغة، كالمعنى والدلالة والإحالة والصدق والكذب، ومثل الكليات الاجتماعية التي تتحدث عنها العلوم الإنسانية، كالدولة والمجتمع والأخلاق والثقافة، ومثل الصفات الحسية التي يتناولها هذا العلم أو ذاك مثل اللون والطول والوزن، وكل ما شابه هذا مما يشترك في خاصية كونه لا يوجد في الزمان والمكان ولكن يصح القول عنه إنه كائن كقائم to be or to subsist.

وأما الموضوعات المفتقرة للوجود والكينونة على حد سواء، تلك التي لا تتحقق في الزمان والمكان ولا هي تقوم خارجهما، فهي صنفان: إما ممكنة وإما مستحيلة.[16] أما الموضوعات الممكنة possible objects، فهي كل الموضوعات التي تكون لها أحوال غير متناقضة non-contradictory Soseins، فلا يحول بينها وبين وجودها أو كينونتها مانع ضروري[17]، مثل الجبل الذهبي والبقر اللاحم والكائنات الفضائية؛ فلا يوجد على الأرض جبل ذهبي، ولكن لا مانع ضروريا من وجوده طالما أن الحالين اللذين يكون بهما غيرُ متناقضين ولا يمنع الواحد منهما الآخر، وهما كونه جبلا وكونه من ذهب. ولا توجد أبقار لاحمة، ولكن ذلك لا يمنع إمكانية وجود موضوع يجمع الخاصيتين غير المتنافيتين، وهي كونه بقرا ويأكل اللحم (يمكن لطفرة تطورية أن تحدث ذلك بسهولة). كذلك الشأن بالنسبة للكائنات التي تسكن كواكب أخرى، فنحن لا نحيط بوجودها علما ولكن خاصيتي كونها كائنات وتعيش في كواكب غير الأرض غير متناقضتين، ومن ثم يمكنها أن تأتي إلى الوجود.[18] ولكن يجب أن ننتبه إلى أن القول عن موضوع إنه «ممكن» لا يعني القول عنه إنه «يمكن أن يكون موضوعا»، فالحال أن الموضوعات الممكنة بمنزلة الموضوعات الموجودة والمستحيلة من حيث هي موضوعات حقيقة، إنما يعني القول الأول فقط أن الموضوع لا يتمتع بخاصية الوجود، ولكنه قابل لأن يكتسبها، فهو موضوعٌ ممكن غير موجود a nonexistent possible object.

16- إن أبسط طريقة لرسم مجال الأنطولوجيا التي يتحدث عنها مينونغ هي الآتية: خذ اثنتين أو أكثر من خصائص الأشياء وألف بينهما، إما يعطيك ذلك موضوعا موجودا (شجرة برتقال) أو يعطيك موضوعا ممكنا (جبل ذهبي) أو يعطيك موضوعا مستحيلا (مربع دائري)...

17- Roderick M. Chisholm, “Beyond Being and nonbeing”, *Philosophical Studies* 24 (1973), 245-257, p. 247

18- قد يسفر بنا أخذ مفهوم «الإمكان» مأخذا فلسفيا إلى الذهاب مذهب جاكو هينتيكا Jaako Hintikka والقول إن حياتنا بطبيعتها وعلى نحو حتمي تجري ويُتداول فيها على أساس مجموعة من الإمكانات (أوضاعا كانت أو أسبابا أو أحداثا ممكنة)، لن يتحقق معظمها أبدا. ويبدو من المعقول بنحو لا غبار عليه انه من بين هذه الإمكانات غير المتحققة هناك موضوعات غير متحققة unrealized objects ومن ثم موضوعات غير موجودة ولكن لا يحول بينها وبين ودودها إلى تفعيل قوة الإمكان الداخلة في بنيتها. ليس الجبل الذهبي مما يوجد، ولكن وجوده يكفيه تفعيل إمكانية التأليف بين الخاصيتين «جبل» و«ذهبي». انظر:

Jaako Hintikka, “Are there nonexistent objects ? Why not? But where are they?”, *Synthese* 60 (1984), 451-45, p. 451

وأما الموضوعات المستحيلة أو المحالة impossible or absurd objects، فهي تلك التي لا تتجسد كأفراد في العالم الواقعي ولا تقوم ككيانات مجردة كما لا يمكنها أن تكون على أحد الحالين؛ لأن قوامها يمنعها من أن يكون لها وجود أو تقوم لها كينونة؛ ذلك أنها تتألف من خصائص متناقضة يستحيل اجتماع وجودها معا، لنقُل إنها موضوعات بأحوال متناقضة تحول بينها وبين وجودها contradictory Sosein.[19] إن المربع الدائري موضوع مستحيل لأنه تأليف من خاصيتين متناقضتين لا تجتمعان في فرد أبدا، وهما كونه مربعا وكونه دائرة، كذلك الابن الذي أنجب أباه موضوع مستحيل؛ لأنه مؤلف من خاصيتين متناقضتين هما كونه ابنا لأبيه وكونه أبا لأبيه. ومثله مثل الموضوع الممكن، لا يعني القول «موضوعٌ مستحيل» أنه «يستحيل أن يكون موضوعا»، إنما يعني فقط أنه «موضوع غير موجود ويستحيل أن يوجد»، فإن استحالة اكتسابه خاصية «موجود» لا تعني استحالة كونه «موضوعا»، فلا يمكن للعدد السالب الأكبر من الصفر أن يوجد ولكن ذلك لا يمنعه من أن يكون موضوعا.

وسواء كان الموضوع ممكنا أو كان مستحيلا، فإنه إما يكون تاما وإما غير تام. ويقصد بالموضوع التام complete object كل موضوع محددةٌ خصائصه تحديدا تاما يمتثل لقانون الثالث المرفوع. إن كل الموضوعات الموجودة موضوعات تامة؛ لأنها جميعا محددة خصائصها وخاضعة لقانون الثالث المرفوع؛ فالكتاب الذي أطالع الآن محددة كل خصائصه؛ لونه وحجمه وعدد صفحاته ومؤلفه ولغته، إلخ، كما أنه إما يكون أسود أو غير أسود، وإما بحجم كذا أو ليس بهذا الحجم، وإما بعدد صفحات كذا ليس بهذا العدد. كذلك الشأن بالنسبة إلى بعض الموضوعات غير الموجودة، مثل «شيرلوك هولمز» كشخصية تخييلية بافتراض أن الكاتب كونان دويل حدد كل خصائصها (قد يكون هذا الافتراض خاطئا)، وهي أنه محقق عاش في شارع بايكر ستريت 221 ب من لندن وكان صديقا للسيد واطسون إلخ، ومن ثم يصدق عليه أنه إما محقق وإما ليس محققا، إما عاش في بايكر ستريت وإما لم يفعل...إلخ.

وأما الموضوعات غير التامة incomplete objects، فهي تلك التي تفتقر لتحديد مجموع خصائصها، ولا نعني بذلك أننا لا نعلم ما إن كان الشيء أحمر أم ليس أحمر، بل نقصد أنه لا هو أحمر ولا هو ليس أحمر. ومن ثم، إذا كانت الموضوعات المستحيلة تنتهك قانون عدم التناقض، فإن الموضوعات غير التامة تنتهك قانون الثالث المرفوع، وهو الوصف الذي ينطبق على بعض الموضوعات غير الموجودة ولا ينطبق على بعضها الآخر، ولكنه لا ينطبق على أي من الموضوعات الموجودة؛ لأن هذه جميعا موضوعات تامة (وإن كنا لا نحيط ببعض خصائصها علما، لأن جهلنا بما إن كانت للموضوع خاصية أم كان يفتقر إليها لا يعني أنه لا هو يمتلكها ولا هو يفتقر إليها). ألا يمكنك تصور مثلث دون أن تفكر فيما إن كانت أضلاعه متساوية أم لا، وفيما إن كانت له زاوية قائمة أم لا، وما إن كان طول أحد أضلاعه سنتيمترا أم لا؟ بلى يمكنك ذلك، فما تتصوره عندما أقول «ليكن مثلث ABC» لا هو مثلث متساوي الأضلاع ولا هو غير متساوي الأضلاع،

19- Chisholm, Beyond Being and nonbeing, op. cit., p. 247

لا هو قائم الزاوية في A ولا هو غير قائم الزاوية في A، ثم إن الجبل الذهبي موضوع ممكن غير تام؛ لأنه باستثناء كونه جبلا ومن ذهب فمن غير المحدد ما إن كان ارتفاع قمته ألف متر أم ليس كذلك، وما إن كان يوجد في المغرب أم ليس كذلك، وما إن كان مأهولا بالسكان أم ليس كذلك إلخ، ومن ثم لا يصدق عليه القول: «يصل ارتفاع قمته ألف متر» ولا يصدق عليه نفي هذا القول، وهو ما ينتهك بوضوح القانون المذكور أعلاه. ولكن لا يصدق القول عن زيد المشار إليه إنه من غير المحدد ما إن كان طويلا أم ليس طويلا لمجرد أننا لا نعرف طول قامته بدقة أو لمجرد معاناتنا من غموض[20] المحمول «طويل»، فهو إذاً موضوع تام؛ لأن هذه صفة كل موجود.

وبالإضافة إلى كون الموضوع إما تامًّا وإما غير تام، فقد يكون مغلقا منطقيا وقد يكون غير مغلق.[21] أما المغلق logically closed object، فهو الذي يقتضي امتلاكُه لخاصيتين (أو أكثر) x وy امتلاكَه الوصل المنطقي بينهما (xʌy)، مثال ذلك أن الجبل الذهبي **موضوع ممكن غير تام مغلق منطقيا** فيما يخص خاصيتي كونه جبلا وكونه ذهبيا، أي أن له خاصية كونه جبلا، وخاصية كونه ذهبيا، ثم خاصية كونه جبلا وذهبيا. كذلك الشأن بالنسبة لكل الموضوعات الموجودة، فهي جميعا موضوعات مغلقة منطقيا، فكون زيد ذكيا وطويل القامة يقتضي كونه ذكيا أولا، وطويل القامة ثانيا، ثم ذكيا وطويل القامة ثالثا، فهذا **موضوع موجود تام مغلق منطقيا**. ولكن لنفترض شكلا هندسيا مستحيلا، هو مربع وهو دائرة ولكنه ليس مربعا دائريا ولا دائرة مربعة (ليس هو الشكل الهندسي الأشهر الذي تكلم عنه مينونغ إذاً)؛ يعني أن له خاصية كونه مربعا، وخاصية كونه دائرة، ولكن دون أن تكون له الخاصية الناتجة عن الوصل المنطقي بينهما، فهذا **موضوع مستحيل غير مغلق منطقيا**. فالموضوع غير المغلق منطقيا إذاً هو الذي لا يقتضي امتلاكُه خاصيتين (أو أكثر) امتلاكَه الوصلَ المنطقي بينهما.

يعني هذا أن الموضوعات الموجودة كلها موضوعات مغلقة منطقيا فضلا عن كونها تامة، بينما الموضوعات غير الموجودة منها المغلق منطقيا ومنها غير المغلق، فالممكنة كلها مغلقة منطقيا؛ لأن الإمكان يقتضي الوصل المنطقي بين خصائص الموضوع الممكن. أما المستحيلة، فقد تكون مغلقة وقد لا تكون، ولا يهم ما إن كانت هذه الموضوعات تامة أم غير تامة.

20- الغموض vagueness الذي أقصد هنا هو ذاك الذي يتعذر أن يرتفع بحال من الأحوال، وعادة ما يتجلى (أنطولوجيا ودلاليا) في مظاهر ثلاثة هي: أ- استحالة رسم الحدود الدلالية الصارمة بين «المحمول» ونفيه أو رسم الحدود الأنطولوجية بين ما ينطبق عليه هذا المحمول وما ينطبق عليه نفيه. ب- ظهور حالات واقعة على الحدود border-line cases، إذ يترتب مثلا على تعذر رسم الحدود الواضحة الفاصلة بين المحمول «أصلع» ونفيه انبثاق مجموعة من الحالات الحدودية التي لا هي تقع تحت المحمول ولا تحت نفيه وإنما تقع على الحدود بينهما، لذلك نجد بعض الناس ينطبق عليهم بوضوح المحمول «أصلع»، وآخرون ينطبق عليهم بوضوح المحمول «ليس أصلعا»، ولكن بين هاتين المجموعتين نجد فئة ثالثة من الناس لا هم صلع بوضوح ولا هم ليسوا صلعا بوضوح. ج- بروز مفارقات تراكمية sorites paradox، إذ أن تأليف استدلال معين من قضايا تضم محمولات غامضة (بحالات واقعة على الحدود) يجعلنا ننطلق من مقدمات صادقة بوضوح لننتهي إلى نتائج كاذبة بوضوح. ولقد كان تناول هذه الظاهرة معاصرا وراء نشوء أنساق منطقية ودلالية عدة أشهرها ذاك الذي يرجع إلى الرياضي الأمريكي لطفي زاده Lotfi A. Zadeh ويدعى «المنطق الغائم» Fuzzy logic.

21- الذي أنشأ هذا التمييز هو تيرانس بارسونز، أشهر مناصر ومطور لنظرية الموضوعات لدى مينونغ. انظر:

Terence Parsons, “Referring to nonexistent objects”, *Theory and Decision* 11 (1979), 95-110, p.99-100

ولئن كان يندُر توجُّه قصديتنا صوب موضوعات مستحيلة أو غير تامة أو غير مغلقة منطقيا، فقلَّما نفكر في المربع الدائري أو نتحدث عن العدد السالب الأكبر من الصفر أو نسأل عن الجبل الذهبي الذي ليس جبلا وذهبيا في الوقت ذاته، فإنه يكثُر توجُّهها إلى موضوعات أخرى غير موجودة، فنفكر في مثال الخير ونسأل عن خط الاستواء ونشبِّه أحدهم بشيرلوك هولمز، وغالبا ما ترافق الإحالةَ على هذه الموضوعات حدوسٌ تضعها بمنزلة تلك التي توجد. وليس من النظريات ما يسفر عن تفسير أكثر إرضاء لهذه الحدوس من نظرية مينونغ وتلك التي تفرعت عنها، غير أن مراجعة بعض هذه الحدوس قد تفضي بنا إلى تقليص نطاق عالم الموضوعات المينونغية إلى حد كبير، وفي ذلك قد يلعب دورَ «نصلِ أوكام» التزود بمبادئ ومسلمات الفلسفة التحليلية والواقعية المحدثة، التي تنتصب نظرياتها (بمختلف صورها) كأكثر النظريات معارضة لمذهب مينونغ.

ب- التقليد التحليلي: زخارف عالم مينونغ في مهب الريح!

إذا عرضنا عالم الموضوعات المينونغية على مبادئ نظريات الفلسفة التحليلية (بروحها الواقعية المحدثة) على اختلافها، وجدناه كما وصفه ويلارد كواين عالما منتفخا ومكتظا and bloated universe overpopulated[22] قوامه موضوعات زائفة وكيانات وهمية، فضلا عن كونه عالما عشوائيا، إما تُنسب فيه للموضوعات خصائص ليست لها، أو تُنشأ فيه بينها علاقات لا تقبلها، أو تُصنف بمقولات لا تناسبها. لذلك اتخذت هذه النظريات من هذا العالم موقفا جذريا رافضة معظم ما اعتُبرت فيه موضوعات حقيقية، ولكن أكثر ما كانت تحتاجه في هذا الخلاف الأنطولوجي هو أن تصوغ موقفها في العبارة المناسبة؛ وذلك ما لم يكن أمرا يسيرا. لا أقصد هنا التباس الموقف التحليلي بتباين صوره بين الفلاسفة، كما لا أعني غموض عبارة الواحد من هؤلاء (فتجنشتين أو راسل مثلا) وانشطار معناها بين طوري فلسفته، إنما أقصد مجرد القدرة على صياغة موقف الواحد منهم من المشكلة الأنطولوجية صياغة تخلو من مظاهر المفارقة.

ففي **رسالته المنطقية الفلسفية**، ذهب لودفيج فتجنشتين المتقدم إلى أن «العالم world هو كل ما هنالك»[23]، وأن ما هنالك تحديدا هي الوقائع facts التي يتألف منها. أما الموضوعات[24] objects (أو الأشياء things أو الكيانات entities)، فلا وجود لها إلا وهي مترابطة في وقائع ذرية، بامتلاك الموضوع خاصية، مثل كون الكتاب أزرق، أو بارتباطه بعلاقة مع موضوع آخر (أو أكثر)، مثل كون الكتاب على

22- Quine, On What There Is, op. cit., p. 23

23- Wittgenstein, Tractatus Logico-Philosophicus, op. cit., 1

24- لا بد من الإشارة إلى الغموض الذي رافق استعمال لفظ «الموضوع» في **رسالة** فتجنشتين، إذ تجده أحيانا يعطي المثال على الموضوع بالأشياء التي نتصل بها في عالمنا الفيزيائي مثل الطاولة والكرسي والكتاب والتي يسميها «موضوعات مكانية Spatial objects» (انظر الشذرة 3.1431 من **الرسالة المنطقية الفلسفية**)، ولكننا في أماكن أخرى كثيرة من الرسالة نجده يتحدث عن الموضوع بما هو العنصر الأبسط التي ينتهي إليه تحليل هذا الموضوعات المكانية (ويعتبرها هي مركبة) (انظر الشذرة 2.02 من **الرسالة**)، وقد أقر هو نفسه بهذا الغموض لا حقا في بحوثه الفلسفية بما اضطره إلى تدقيق استعماله للفظ (انظر الشذرة 46 من **البحوث الفلسفية**). ولكن الضرورة تُلجئني هنا إلى القفز على هذه الواقعة مختزلا معنى «الموضوع» في الأشياء المركبة التي نتصل بها في عالمنا الفيزيائي.

يمين المحفظة أو كونه أكبر حجما من القلم وأصغر من الكرسي. ومع أن هذه الموضوعات أبسط من الوقائع الداخلة في تركيبها، فإن تحليل العالم ينتهي إلى وقائع ذرية لا إلى موضوعات؛ وذلك لعدم استقلال الأخيرة بوجودها عن الوقائع الداخلة في تأليفها، إذ لا يمكن أن يتحقق وجود الكتاب إلا وهو يتصف بهذه الصفة أو تلك أو هو في علاقة مع هذا الشيء أو ذاك أو مع هذا الشخص أو ذاك أو في هذا الزمان أو ذاك، إلخ، وهو ما ينعكس حتى على إمكانية تمثيل هذه الموضوعات على مستوى الفكر؛ إذ «لا يمكنني التفكير في موضوعٍ إلا في سياق واقعة ذرية معينة».[25] فكان المبدأ الأول في هذه النظرية أنه ليس من الموضوعات ما يوجد وجودا مطلقا.

ومع أن الموضوعات لا تتمتع بوجود مطلق مستقل عن الوقائع الداخلة في بنائها، فإنها مع ذلك «تشكل جوهر العالم»[26] وصورته الثابتة التي لا يطرأ عليها تغيير عندما تتغير وقائعه؛ فلا يتغير سقراط[27] وإنما يمس التغييرُ الوقائعَ التي يدخل في تركيبها، ولا يتغير القلم وإنما تتغير الوقائع التي تتألف منه. وإذا تقرر ذلك تأكد به أن إمكانيات تأليف الوقائع يحكمها عدد الموضوعات التي تتشكل منها صورة العالم مقدَّما، فـ«إن حصلت على كل الموضوعات، حصلت بذلك على كل الوقائع الذرية الممكنة»[28]، ووقفت على حدود العالم الذي يسعك الحديث عنه أو التفكير فيه. فكان المبدأ الثاني في النظرية هو أن «الثابت والموجود والموضوع مترادفات»[29]، وهو يكفي للحكم بالتناقض الذاتي لكل حديث عن موضوع غير موجود، لأنه يعني ببساطة الحديث عن **موجود غير موجود** أو **موضوع ليس بموضوع**.

ويترتب على تقرير أن الموضوعات تشكل جوهرَ العالم وصورَته الثابتة أنه لا يمكن أن يُدعى موضوعا إلا ما هو بسيط داخلٌ في بناء واقعة من وقائع العالم، فبينما يمكن بناء واقعة من موضوعين أو أكثر فإنه يتعذر بناء موضوع من خاصيتين أو أكثر، فخرج بذلك الموضوع من خانة المركَّب ليُختزل نطاقه في خانة البسيط، كما خرج من خانة الممكن لينحصر مجاله في خانة الفعلي والمتحقق، فإن الممكن سمة للوقائع وحدها. وإذ يمتنع وصف الموضوعات بالممكنة، فإن امتناع وصفها بالمستحيلة أو غير التامة أو غير المغلقة منطقيا يكون امتناعا أَولى، فـ«الموضوع هو الثابت وهو الموجود».[30]

25- Wittgenstein, Tractatus Logico-Philosophicus, op. cit., 2.0121

26- Ibid. 2.021

27- لا لون للموضوعات من طبيعتها ولا وزن ولا شكل ولا أيا مما تأخذه عندما تدخل في بناء الوقائع، ومن ثم لا يمكنك القول إن الموضوع يتغير من خلال تغير لونه أو وزنه أو شكله أو اكتسابه خاصية أو فقدانه لها، إنما التغير يطرأ على الخصائص التي يأخذها أو يفقدها وعلى ارتباطاته بموضوعات أخرى، فانتقال القلم إلى يمين المقلمة بعدما كان على يسارها واقعتان مختلفتان ولكن الموضوع بقي ثابتا، وكون الورقة بيضاء وصارت حمراء واقعتان حدث التغير بينهما بينما بقيت الورقة موضوعا ثابتا، ويمكن أن نقيس على هذين المثالين بقية الموضوعات التي تشكل جوهر العالم وبقية الوقائع التي يتألف منها بحسب فتجنشتين المتقدم.

28- Ibid., 2.124

29- Ibid., 2.037

30- Ibid., 2.271

وإن مما يزكي عدم اتساع مذهب الذرية المنطقية لنظرية الموضوعات المينونغية هو حديث، فتجنشتين المتقدم عن الواقع reality والوقائع السالبة في مقابل حديثه عن العالم world والوقائع الموجبة. فإلى جانب الوقائع الموجودة التي يتشكل منها العالم، والتي يسميها «وقائع موجبة»، مثل كون الشمس طالعة وكون العدد 5 فرديا، هناك وقائع غير موجودة يدعوها «وقائع سالبة» مثل كوني لست طفلا وكون حاسوبي ليس أحمر، وهي تشكل مع النوع الأول ما يدعوه الفيلسوف النمساوي «واقعا».[31] وهنا تظهر مشكلتنا تحديدا: هل كون المربع الدائري غير موجود حقيق بأن يوضع ضمن الوقائع السالبة؟

يمكننا استنباط جواب فتجنشتين (الذي لم يلتفت مباشرة إلى نظرية مينونغ) من الوصل المنطقي بين مقدماته الآتية: أ- إن مجموع الوقائع الذرية الموجودة هو العالم. ب- إن وجود وعدم وجود الوقائع الذرية هو الواقع. ج- إن الواقع محدود بمجموع الموضوعات. د- إن مجموع الواقع هو العالم.[32] النتيجة إذاً هي أن الواقع لا يمكن أن يضم واقعة سالبة ما لم يكن الموضوعُ (أو الموضوعات) الداخل في بنائها أحدَ الموضوعات القائمة مقدما والتي تشكل جوهر العالم وتتركب منها وقائعه الموجبة. ومن ثم، طالما لا توجد واقعة ذرية يدخل في تأليفها المربع الدائري فلا تصدق قضية[33] موجبة يشغل مكانَ الموضوعِ فيها اللفظ «المربع الدائري»، فبالمثل لا تصدق أي قضية سالبة يشغل مكان الموضوع فيها هذا اللفظ، من قبيل «**المربع الدائري ليس شكلا هندسيا**» أو «**المربع الدائري ليس موضوعا رياضيا**»؛ لأن المربع الدائري ليس موضوعا وليس مما يوجد حتى تنفي عنه خاصية.[34]

31- Ibid., 2.06

32- Ibid., 2.04, 2.06, 5.5561 and 2.063 respectively.

33- عرَّف القدامى القضية بأنها الجملة الخبرية التي تثبت شيئا لشيء أو تنفيه عنه وهي تقبل الحكم عليها بالصدق أو بالكذب. وقد استقر المعاصرون على هذا التعريف، غير أن تقليدا بدأ منذ «**رسالة**» فتجنشتين يميز بين «الجملة الخبرية» و«القضية»، ومقتضى هذا التمييز هو أن الجملة sentence علامة دالة على القضية proposition أو صورة لها، وأن القضية هي الفكرة التي هي صورة لواقعة من وقائع العالم، غير أن الرسالة المذكورة في كثير من الأحيان لا تميز بين «الجملة» و«القضية» فتستعمل الواحدة منهما للإشارة إلى الأخرى. وقد ترتب على هذا اللبس غموض بخصوص الصدق والكذب؛ هل هما صفتان للجملة أم للقضية المعبَّر عنها أم لهما معا. وقد استقر على هذا التقليد (بما فيه من غموض والتباس) جل المناطقة بعد فتجنشتين. فهذا كواين مثلا يقول: «عادة ما تكون الجملة الخبرية صادقة أو كاذبة...والقضية هي معنى الجملة، ويفترض في القضايا أن تكون صادقة أو كاذبة». انظر:

W. V. Quine, *Ontological relativity and other essays*, Columbia University Press, New York, 1969, p. 139

34- ومثل المسلك الذي سلكه فتجنشتين في طور الذرية المنطقية، اتخذ جلبرت رايل Gilbert Ryle (1900-1976) موقفا جذريا من المشكلة الأنطولوجية، فلم يكتفِ بنبذ الموضوعات المينونغية خاصة، بل زاد على ذلك إطراحَه حتى الكيانات المجردة مما دأب الفلاسفة على اعتبارها موضوعات حقيقية، وفي مقدمتها الكلياتُ والموضوعات الميتافيزيقية، وكان مبدؤه في ذلك أن ما يجعل من الموضوع موضوعا هو انتماؤه إلى عالمنا الواقعي كفرد من أفراده أو جزئي من جزئياته. لقد خدع الفلاسفة (ليس الميتافيزيقيين منهم خاصة) اعتقادُهم في وجود الأفكار والتصورات والأحكام والمعاني مثلما فعل اعتقادهم في وجود الجواهر والمثل والقيم، فساروا يتحاجون حول ما إن كانت هذه كيانات موضوعية أم ذاتية، مثالية أم واقعية، نسبية أم مطلقة، ولم ينتبهوا إلى أنهم لم يكونوا يتداولون في موضوعات حقيقية، ببساطة لأن «الكليات ليست موضوعات بنفس الطريقة التي يكون بها جبل إفرست موضوعا»، فلم يكونوا في ذلك أفضل حالا من الأطفال الذين يعتقدون في وجود السماء وخط الاستواء والقطب الشمالي والأبقار اللاحمة وأحاديات القرن. انظر:

Gilbert Ryle, "Systematically Misleading Expressions", *Proceedings of the Aristotelian Society*, New Series, Vol. 32 (1931 - 1932), pp. 139-170, p. 152

غير أنه إلى جانب هذه الصورة الذرية المنطقية المتشددة لموقف الفلسفة التحليلية من المشكلة الأنطولوجية، فإننا نلفي لهذه الفلسفة صورا أكثر ليونة وإن ثبتت على رفضها الواضح للموضوعات المينونغية باعتبار انتهاكها أهم قوانين الفكر الأساسية، حتى أننا لنعثر لدى الواحد من الفلاسفة التحليليين (المتشبعين بالروح الواقعية المحدثة) تأرجحا بين الرفض التام للموضوعات غير الموجودة واعتبارها موضوعات زائفة أحيانا، والركون إليها بالاعتراف واعتبار بعضها موضوعات حقيقية في أحيان أخرى. ولئن كان ذلك كثيرا ما حدث استجابة للمشكلات التي لم تزل تثيرها الكليات في مجال الرياضيات خاصة، فإن المرء يجد لنظرية مينونغ فيه نصيبا وافرا لا ينكره مطلّع. ويمكننا أن نأخذ من كل من برتراند راسل وويلارد كواين مثالين واضحين على هذا التأرجح.

فعلى الرغم مما جاءت به ذَرية راسل المنطقية Bertrand Russell (1872-1970) من اختزال للموضوعات في الأفراد أو جزئيات العالم الفيزيائي، فقد وسَّعت نظريته في الدلالة دائرة الموضوعات لا لتشمل الكيانات الفيزيائية التي لا نتصل بها الاتصالَ المباشر فحسب، وإنما لتستوعب حتى المجردات المقيمة خارج الزمان والمكان.[35] وبالمثل، رغم الموقف الجذري الذي اتخذه كواين بادئ الأمر من الكليات ومذهبِه القاضي أن الصفات والعلاقات والفئات والأعداد والأشكال الهندسية وما شابهها ليست موضوعات ويعدم أن يكون الحديث عنها يُلزمنا أنطولوجيًا[36]، فقد عدَل لاحقا عن منظوره موسَّعا مفهومه لـ«**الموجود**» ومُقِرًّا بأن صفة «**الموضوع**» تتجاوز ما يوجد وجودا زمانيا ومكانيا. فميَّز في الموضوعات الموجودة

35- ميَّز راسل بين ثلاثة أنواع من الموضوعات تبعا لنمطين من أفعال المعرفة يقعان عليها: أ- **العينيات**، وهي موضوعات إدراكنا الحسي المباشر مثل يدي والشجرة الماثلة أمامي ب- **المحسوسات البعيدة**، وهي موضوعات العالم الواقعي التي لا نتصل بها اتصالا حسيا مباشرا، مثل عقول الآخرين وما يوجد في أماكن لم نزرها. ج- **المجردات**، وهي موضوعات تفكيرنا الخالص، مثل المعاني والقيم والحقائق. فبينما تقع معرفتنا المباشرة على النوع الأول فإننا لا نعرف النوع الثاني إلا بواسطة الدلالة. فأنا أدرك حجم الحاسوب الماثل أمامي إدراكا مباشرا؛ لأني أتصل به كمعطى حسي ليس بيني وبينه حجاب، ولكني لا أعرف على نفس النحو أفكار الشخص الجالس بجانبي أو درجة الحرارة في كوكب الزهرة، لأني لا أتصل بهما اتصالا مباشرا، وإنما تأتيني معرفتهما بواسطة دلالة الكلمات في الخبر الذي أتلقاه عنهما. غير أن امتناع إدراك الشيء الإدراك المباشر لا يعني انسحابه من دائرة موضوعات المعرفة؛ فقد يكون الموضوع فردا أو جزئيا أكثر تجريدا لا يمكن إلا أن نتصوره أو نفكر فيه. عندما أقول إن «x يرتبط بـ y بواسطة العلاقة R» أو R(x,y) ويكون هذا قولا صادقا، فإنه يصدق باعتبار أن هناك موضوعا هو العلاقة R بين x وy. فسواء كان موضوع معرفتنا فردا نتصل به بالحس أو كان جزئيا أكثر تجريدا نعرفه بواسطة الدلالة، فلا بد أننا نكون في الحالتين معا أمام كيان entity حقيق بأن تتوجه صوبه قصديتنا وتتشكل من أمثاله مجموعات أو كليات (مثل الناس والمجرات وأحداث الدوران وغيرها) لا نأخذها موضوعات أصيلة للإحالة، ولكننا نقر أن أفرادها موضوعات حقيقية، غير أننا أبدا لا نجد بين هذه شيئا من ما أتت به نظرية مينونغ من موضوعات مزعومة، فتلك لا تعدو تؤلف المجموعة الفارغة. فهل يمكن لِما ليس كيانا non-entity أن يكون موضوعا؟! هناك ما لا يقبل حتى أن نفكر فيه، لانتهاكه قوانين التفكير الأساسية، فكيف لنا أن نفكر في موضوع مزعوم (هو المربع الدائري) تسقط أمامه قوانين الهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع؟! انظر:

Bertrand Russell, "On Denoting", *Mind, New Series*, Vol. 14, No. 56 (Oct., 1905), 479-493, p. 479, 480 and 491

36- عبَّر كواين صراحة عن هذا الموقف في مقاله المشترك مع نيلسون غودمان سنة 1947 بالقول: «إننا لا نعتقد في الكيانات المجردة abstract entities، لا أحد يفترض أن الكيانات المجردة توجد في الزمان، الفئات والعلاقات والخصائص. نحن نتخلى عن هذه وننبذها تماما...وإن التخلي عن الكيانات المجردة ليتركنا مع عالم مؤلف من موضوعات فيزيائية أو أحداث، أو من وحدات التجربة الحسية». (انظر: Nelson Goodman and W. V. Quine, Steps toward constructive nominalism, 105). كما عبَّر الفيلسوف الأمريكي عن هذا الموقف لاحقا (1948) في مقاله الخاص «On what there is» بالقول إنه ليس هناك كيان أو موضوع مهما كان نوعه، فرديا أو غير فردي، هو **الصفة** من قبيل «الحُمرة» أو «الوردية»، رغم أننا لا ننازع أن هذا المنزل أحمر وهذه الزهرة وردية، وأنه ليس هناك كيان مهما كان نوعه هو **العلاقة** من قبيل «الأخوة» أو «البنوة» رغم أننا نقول «زيد أخ عمر» أو «زيد ابن عمر»، وأنه ليس هناك أي كيان مهما كان نوعه هو **الفئة** (أو هو **المجموعة**) من قبيل «الحواسيب» أو «الطيور» مع أننا نقبل القول إن الجهاز الذي أستعمله الآن للكتابة من فئة الحواسيب بينما هذا العصفور من فئة الطيور، وأنه ليس هناك أي كيان مهما كان نوعه هو «**العدد**» أو هو «**الشكل الهندسي**» مع أننا نسلم بأن عدد موضوعات العالم متناهي ونقر بأن جل الأجسام المحيطة بنا ذوات أشكال هندسية. يعني ذلك أنه يعدم أن يكون أي من هذه الكليات (الصفات والعلاقات والفئات والأعداد والأشكال الهندسية) كيانا حقيقيا ومن ثم يعوزه أن يكون موضوعا رغم أننا نشير إليه بلفظ مخصوص ونصدق الأقوال الداخل في تركيبها هذا اللفظ. **إننا لا نلزم أنفسنا أنطولوجيًا** بموضوع هو البياض لمجرد قولنا «الثلج أبيض»، كما لا نلزم أنفسنا أنطولوجيا بموضوع هو العدد 11 لمجرد قولنا إن عدد كواكب مجرتنا 11

بين فئتين: الأولى هي فئة الكيانات الموجودة في الزمان والمكان، وهي الأشياء المتجسدة فيزيائيا مثل زيد والشجرة والقلم، أما الثانية فهي فئة الكيانات التي توجد مستقلة عن الزمان والمكان ولا يلزم تجسدها فيهما، مثل المجموعة الرياضية وقانون عدم التناقض والجذر التكعيبي للعدد 27، فإن الإحالة على الزمان والمكان تغيب عندما أقول «الجذر التكعيبي للعدد 27 أكبرُ من 2»؛ لأن العدد 2 والجذر التكعيبي للعدد 27 ليسا من الأشياء الزمانية المكانية.[37] غير أن افتقار الكيانات المجردة لطابع التجسد ووجودَها في مستوى أنطولوجي مختلف عن الذي توجد فيه الأشياء الزمانية المكانية لا يمنعان وضعها في المنزلة ذاتها بما هي موضوعات. فمن المسوغ وضع **سقراط** في مستوى أنطولوجي مختلف عن الذي نضع فيه **الحكيم**، ولكن ذلك ليس مانعا منطقيا لتناول كلمة «**الحكيم**» كاسم لفئة الكائنات الحكيمة مأخوذة كموضوع من نوع مجرد.[38] ولكن الحاجة إلى التنبيه ماسةٌ هنا، فإننا نرفض أن يكون **بيغاسوس** موضوعا، بينما نأذن لدائرة الموضوعات بأن تشمل **العدد 2** مع أن المشترك بينهما عدمُ تجسدهما في الزمان والمكان. وتفسير ذلك أن هناك فارقا أساسيا بينهما يجب أن يؤخذ في الحسبان: **فالعدد 2** لا يقتضي وجودُه تجسدَّه، والأمر بخلاف ذلك بالنسبة **إلى بيغاسوس** الذي يحيل اسمه على وجوده في الزمان والمكان ونحن لا نحصي بين الكائنات الموجودة المتجسدة حصانا مجنحا هو بيغاسوس، فحُق للأول أن يكون موضوعا وإن لم يكن في الزمان والمكان، كما حُق للأخير أن يُلقى به في سلة الموضوعات الزائفة.

والحق أن هذا التغير الكبير في مذهب كواين لم يكن ليظهر لو لم يحفل الرجل بحدود الالتزام الأنطولوجي في الرياضيات خاصة.[39] وإذ لم يجد مفرا من الإقرار بأن «الرياضيات الكلاسيكية غارقة في التزامها بأنطولوجيا الكيانات المجردة»[40]، وإذ وجد أن الأزمة التي اندلعت معاصرا حول أسس الرياضيات كانت محض صورة جديدة للجدل الذي ساد العصورَ الوسطى حول الكليات (مع أن الرياضيين المعاصرين لم يعترفوا عموما بأنهم كانوا يناقشون المشكل القديم ذاته في صورة جديدة نالت نصيبها الكافي من الوضوح)، فقد صار «**الموضوع**» عنده لا يُحسب فيه ما إن كان موجودا أم غير موجود، فيزيائيا أم عقليا، متجسدا أم مجردا، وصارت القاعدة الأنطولوجية الجديدة عنده هي: عندما نُثبت شيئا لـ x، نعني بذلك أنه «يصدق على

37- Quine, On What There Is, op. cit., p. 23

38- Willard Van Orman Quine, Mathematical logic, Revised edition, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1981, p. 119-120

39- نلفي التجسيد الأكبر للحاجة النظرية إلى المجردات أو الكيانات غير الموجودة (أو اللاكيانات nonentities) وتعذر الاستغناء عنها في العلم –نلفيه- في الرياضيات بدرجة أولى وفي التفسيرات النظرية للعلوم عامة بدرجة ثانية، حيث الدأب على استدعاء موضوعات مثالية مبسّطة ideal simplified objects تعمل كأمثلة تقريبية للموضوعات الحقيقية، سواء خلال أطوار بحث حل المشكل العلمي أو خلال عملية البيان النظري. لذلك يمكن القول إن خطاب العلوم النظرية جميعا يفترض مبدأين اثنين متكاملين: الأول هو أن اتجاه الإحالة فيه نادرا ما يكون هو العالم الواقعي، لذلك إذا كنا نعني بالإحالة حصرا الإشارة إلى موضوعات موجودة وجودا فيزيائية، لا بد أن نقر أن خطابات العلوم النظرية خطابات غير إحالية بهذا المعنى nonreferential، والثاني هو أن ما يهم في كل جزء من هذه الخطابات هو المفهوم وليس هو الماصدق، أو لنقل إنها خطابات مفهومية intensional. ويمكننا أن نأخذ من الرياضيات والمنطق مثالين يجسدان هذه الدعوى. ولمزيد إيضاح لهذه المسألة يمكن العودة إلى:

Richard Sylvan, The importance of nonexistent objects and of intensionality in mathematics, Philosophia Mathematica (3) Vol. 11 (2003), pp. 20-52).

40- Quine, On What There Is, op. cit., 32-33

كل موضوع x، ممتدا ومتجسدا كان أم مجردا، فئة كان أم فردا».[41] فلا يهم الرياضي ما إن كان الموضوع المحال عليه في القضية x=15 قلما متجسدا أم مجموعة الأقلام المصنوعة أم يضاف إلى هذه تلك التي تخطط المصانع لصناعتها.

وإذ وسَّع كواين دائرة الموضوعات لتشمل الكيانات المجردة، فقد استقر تناوله للمشكلة الأنطولوجية على العمل بخطة دلالية قوامها دعامتان متكاملتان: أولاهما التسليم بأن الخلاف الأنطولوجي محضُ انعكاس لتباين الأنظمة المفهومية والألفاظ الدالة عليها «يمكننا ترجمته ليكون خلافا دلاليا حول الكلمات وما يمكن فعله بها»[42]، فاستحالت المشكلة الأنطولوجية مشكلةً لغوية دلالية خالصة. وأما الدعامة الثانية، فهي الإقرار بأن تبنينا لأنطولوجيا معينة يماثل من حيث المبدأ قبولنا لنظرية علمية معينة ويستند إلى الأساس ذاته هو أن «كليهما مسألة لغة، لا أكثر».[43]

لقد دعا كواين لأنْ يكون العمل العلمي عملا **ليبراليا** على المستوى الأنطولوجي، فانتهى إلى مذهب ليّن بصدد المشكلة الأنطولوجية وأكثر انفتاحا مقارنة بجل التصورات التحليلية أو الواقعية. وإذ أبقى على سؤال **أي أنطولوجيا يجب أن نتبنى بالفعل؟** مفتوحا، اكتفى بـ«النصيحة الواضحة القاضية بالتمسك بالتسامح والروح التجريبية tolerance and experimental spirit».[44] إن التسامح كفيل بتسويغ عدم الحاجة إلى تبرير الاختيار (أو الالتزام) الأنطولوجي والإبقاء عليه في دائرة المواضعة رغم ضرورته كإجراء علمي، كما يغني عن تفسير أي ركون لواحدة من الأنطولوجيات المتنافسة أو لأي معيار قبلي تأخذ به. ولكن هذا التسامح ينبغي أن يظل مضبوطا **بالروح التجريبية** حتى لا يفضي إلى حمل صفة «**الموضوع**» على كيانات زائفة يضعنا الإقرارُ بكونها موضوعات في غياهب التناقض، مثل «ملك فرنسا الحالي» و«بيغاسوس» و«المربع الدائري» وما شابهها.[45] يعني ذلك أن ليونة نظرية كواين وانفتاحها لهما حدود تمنعها على الأقل من التسليم بالجزء الأكبر من نظرية مينونغ والنظريات التي نافحت عنها.

41- Quine, Mathematical logic, op. cit., p. 121

42- Quine, On What There Is, op. cit., p. 36

43- Ibid., p. 36-37

44- Ibid., p. 38

45- قدم ويلارد كواين تفنيدا قويا لـ«الموضوع الممكن» مثلما صوَّره مينونغ وأنصار نظريته من خلال مثاله المشهور عن «الرجل البدين الممكن الموجود في مدخل الباب»، توسل به ليبين أن عالم الموضوعات المينونغي عالم عشوائي وغير منظم لا يمكنك التمييز فيه بين هذا الموضوع وذاك، ومن ثم لا يمكن الحكم بصدق القضية عن هذا الموضوع أو كذبها. لنأخذ مثلا **الرجل البدين الممكن الموجود في مدخل الباب**، ثم لنأخذ **الرجل الأصلع الممكن الموجود في المدخل ذاته**. هذه أسئلة كواين الهدامة لمفهوم «الموضوع الممكن» عند مينونغ وبارسونز وغيرهما: أهما الرجل الممكن نفسه أم هما رجلان ممكنان اثنان؟ كم رجلا ممكنا هناك في ذلك المدخل؟ أهناك رجال نحفاء ممكنون أكثر من الرجال الصلع والبدينون الممكنون؟ كم عددهم؟ كيف نحكم؟ كم منهم يتشابهون وكم منهم يتمايزون؟ أم هل كونهم يتشابهون تشابها تاما يجعلهم رجلا واحدا؟ أليس هناك شيئان ممكنان يتشابهان تشابها تاما إلى درجة الهوية؟ هل يقبل مفهوم (أو قانون) الهوية الانطباق على الممكنات غير الموجودة بالفعل؟ بأي معنى يمكننا الحديث عن ممكنات غير موجودة بالفعل لا هوية بينها (أي تشكل شيئا واحدا) رغم أنها تتشابه خصائصها تشابها تاما؟

حاصل القول، قد لا يُخطئ الناظر متانة الموقف التحليلي (بروحه الواقعية) في الخلاف الأنطولوجي، خاصة بعد أن اتسعت دائرة الموضوعات فيه لتشمل الكيانات المجردة المشتغلة بها جل العلوم، وقد لا يُنازع في صلابة حجاج أصحابه سيما عندما يُضرب المثل على **الموضوع غير الموجود** بالمربع الدائري أو البقر اللاحم أو بيغاسوس أو ما ماثل ذلك. ولكن تنويع الأمثلة ربما يضع هذا الموقف أمام بعض الصعوبات. لنأخذ مثالا أولا من حقل العلم ذاته، وهو الموضوعات التي تفترضها بعض الفرضيات العلمية ويتضح بالتجريب العلمي عدم وجودها، كوكب Vulcan وقارة Atlantis وما ماثلهما: من المعلوم أن الفرضية العلمية جواب مسبق عن مشكل علمي أو حكم يحتمل أن يصدق كما يقبل أن يكذب تبعا لنتائج البحث التجريبي، توظَّف لسدِّ فراغ يجده العالم بين ظواهر الطبيعة، فيفترضَ وجودَ كيان (شيئا كان أو واقعة) يملأ ذلك الفراغ. غير أن البحث التجريبي كثيرا ما يكون قاصرا عن تأكيد وجود ذلك الكيان أو تأكيد عدمه فيُبقي الفرضية على الحدود بين الصدق والكذب؛ فلا تنتقل إلى نطاق القضايا العلمية التجريبية (الصادقة) ولا إلى نطاق القضايا غير العلمية (الكاذبة) ما دمنا لا نعلم بيقين ما إن كان موضوع الحمل فيها موضوعا من العالم الفيزيائي أم إنه ليس كذلك، لذلك لا نعلم ما إن كانت عبارتها تصوِّر واقعة من وقائع العالم أم ليست تفعل ذلك. يعني هذا أن معيار **الوجود/عدم الوجود** لا يكفي دائما للبت في ما إن كان الأمر متعلقا بموضوع فيزيائي حقيقي أم بمحض افتراض كاذب، وهو ما يُلجئنا إلى معايير أخرى تبدو لها مقبولية تداولية أكبر، منها كون الموضوع **أفقَ فعل قصدي** معين. ذلك ما قد يشهد عليه مثال آخر مختلف قليلا: غالبا ما نخاف من أشياء واقعة أمام أعيننا أو على الأقل نحيط علما بوجودها الفيزيائي، ولكننا كثيرا ما نخاف من أشياء ليست من العالم الفيزيائي ولا حتى من المعقولات التي يستغني وجودها عن تجسدها في الزمان والمكان، لا أقصد الخوف من الأشباح فربما كان تفنيد هذا يسيرا، وإنما أعني خوفي من المرض رغم أني الآن بصحة جيدة وخوف هذا من الفاقة وخوف الآخر من خيانة الصديق وخوف بعضهم من نهاية العالم؛ في كل هذه الحالات نكون إزاء علاقة بين شخص وموضوعِ خوفه يدركه إدراكا مباشرا ولا يمكنك أن تثنيه عن التفكير فيه بمجرد دليل عدم وجوده الآن، كما لا يحل المسألة مجرد الزعم أن خوفي محض انفعال تجاه أشياء موجودة لا أنتبه إليها وأتوهم بدلَها شيئا آخر؛ لأن جوهر الموقف القصدي هنا (الخوف) هو توجُّهه صوب موضوع بعينه (المرض) وإلا استحال موقفا قصديا آخر مختلفا تمام الاختلاف.

وقد يصرف المرء النظر عن المعيار أو الشرط الضروري والكافي الذي يكون به الموضوع موضوعا (وهل يمكننا ذلك ونحن نناقش المسألة الأنطولوجية؟!)، غير أن ذلك لا يكفي الموقفَ التحليلي الواقعي لتلافي مشكلات أخرى جمة. فحتى لو سلمنا بنفي صفة «موضوع» عن بعض الأشياء، لا بد أن مجرد التعبير عن الخلاف الأنطولوجي يضع هؤلاء في مأزق حقيقي: عندما **ننكر** على «المربع الدائري» كونه موضوعا لكونه مما لا يوجد ولا مما يمكن تصور وجوده، لا بد أن نصوغ رفضنا على النحو الآتي: «المربع الدائري غير موجود»، أو «ليس هناك مربع دائري»، أو «المربع الدائري ليس موضوعا»، والحال أن هذه الصيغ في التعبير قد تبدو مكتسية بعض التناقض فتُلبس الموقفَ في مجمله زي المفارقة؛ إذ

تجعل **المربع الدائري** موضوعا للحكم من جهة، ولكنها تنفي عنه كونه موضوعا من جهة أخرى. كما لو أن إنكار وجود المربع الدائري أو نفي صفة الـ»موضوع» عنه لا يستقيم بلا تناقض. وهذا ما يجعل صاحب هذا الموقف يعاني من عائق إضافي هو عدم قدرته حتى على وصف خلافه مع خصمه، بل قد يبدو عاجزا حتى عن التعبير عن موقفه من المشكلة.

2- في دلاليات الألفاظ الدالة على موضوعات غير موجودة

إذا اتضح أن نظرية الموضوعات تضعنا في المستوى الأول أمام حدود الالتزام الأنطولوجي، فإنها تلقي بنا في مستوى ثان أمام إحراجات **المشكلة الدلالية**. إننا لا نفتأ نتكلم عن موضوعات غير موجودة، سواء في حديثنا اليومي أو في معجمنا الأدبي أو الفني أو الفلسفي أو حتى في خطابنا العلمي، فلم يزل متن لغتنا يشمل ألفاظا مثل «الجذر المربع» و«مثال الخير» و«أحادي القرن» و«بيغاسوس» و«شيرلوك هولمز» وما شابهها، ولم نزل نحسب عباراتنا المتضمنة لها عبارات دالة. غير أن التفكير في استعمال هذه الألفاظ على ضوء ما انتهينا إليه من تناول المشكلة الأنطولوجية يفضي إلى أسئلة أركِّزها في ما يلي: أهذه أسماء عادية مثل بقية الأسماء أم يعوزها أن تكون كذلك؟ أهي بمنزلة أسماء الأعلام مثلا، أم أنها لا تقوم مقامها ولا تؤدي وظائفها؟ هل القضايا الداخلة في تركيبها صادقةٌ/كاذبةٌ أم إن لها وضعاً منطقيا آخر أو قيمة غير القيمتين الصدقيتين المعروفتين؟ أهي تخضع للقوانين المنطقية الكلاسيكية الأساسية (خاصة قانوني عدم التناقض والثالث المرفوع) أم أنها تندُّ عنها وتتجاوز حدودها؟

دشن غوتلوب فريجه التصورات التحليلية للمسألة الدلالية بالتمييز في كل علامة (سواء كانت كلمة أو كانت تأليفا من الكلمات) بين عنصرين اثنين: [46] فبالإضافة إلى ما تشير إليه وهو «**مرجع إحالتها** Its referent»، هناك ما يُستفاد منها وهو «**معناها** Its sense»؛ فهي تعبر عن معناها وتحيل على مرجعها.[47] ويقصد بمعنى العلامة **المفهوم** الفردي المرتبط بها، والذي يلتقطه كل مُلمّ باللغة التي تنتمي إليها، تُفصح عنه للجميع كما لو كان «ملكية مشتركة» للناطقين بتلك اللغة. وأما مرجع إحالتها، فهو **الشيء** ذاته الذي تشير إليه عند استخدامها ولا يُعرف إلا بالتجربة أو الخبر. خذ مثلا: يُفهم من الاسم «نجمة الصباح» معنى «الجرم السماوي المشعّ نوره عند كل صباح»، ويُفهم من الاسم «نجمة المساء» معنى «الجرم السماوي المشعّ نوره عند كل مساء»، ويَفهم هذين المعنيين كل من يحيط علما بمعجم وقواعد تركيب اللغة العربية.

46- وقد أضاف إليهما عنصرا ثالثا هو التصور الحسي المرتبط بالعلامة the associated conception، وهو صورة شعورية داخلية تنشأ من تذكر انطباعات حسية قد كانت لي ومِن تذكر أنشطة كنت قد قمت بها، كثيرا ما يكون هذا التصور مشبعا بالإحساس. إنه تصور ذاتي، يختلف من شخص إلى آخر، بخلاف كل من المعنى والإحالة المتصفين بالموضوعية. ومثال فريجه هو الآتي: لو أني أخذت منظارا أنظر من خلاله إلى القمر، يمكنني تشبيه القمر ذاته بمرجع الإحالة، فهو مستقل عني كل الاستقلال، ويمكنني تشبيه صورة القمر المنطبعة على عدسات المنظار بالمعنى، وهو بذلك مستقل عني، كما يمكنني تشبيه الصورة الحسية المنطبعة على عيني بالتصور الحسي، وهو بذلك ذاتي طالما أن هذه الصورة ترافقها دوما أحاسيس متباينة.

47- Gottlob Frege, “Sense and Reference”, *The Philosophical Review*, Vol. 57, No. 3 (May, 1948), pp. 209-230, p. 214

أما مرجع إحالة «نجمة الصباح»، فهو كوكب الزهرة، وهو نفسه مرجع إحالة «نجمة المساء»، ولكن معرفة هذا الأمر لا تكتسب إلا بالتجربة أو بالخبر.

غير أنه كثيرا ما يحدث أن يكون للعلامة معنى دون أن يكون لها مرجع إحالة، وتلك هي حالة الألفاظ الدالة على موضوعات غير موجودة: إن المعنى الذي يُفهم من الاسم «أوديسيوس» هو «ملك إيتاكا الأسطوري، وأحد قادة حرب طروادة، وصاحب فكرة الحصان في هذه الحرب، وبطل ملحمة الأوديسا لهوميروس، إلخ»، كما أن المعنى الذي يُفهم من الاسم «الجبل الذهبي» هو «الجبل المكون بالكامل من ذهب». ولكن لا واحد من الاسمين له مرجع إحالة، لعدم وجود شيء هو الجبل الذهبي أو شخص هو أوديسيوس. لذلك فأمام ألفاظ من هذا النوع، يلتقط المرء معنى اللفظ دون أن يعثر على مرجع إحالته. وبما أن إحالة القضية هي مجرد دالة إحالات الأسماء الداخلة في تركيبها، فإن القضية «وُضع أوديسيوس على شاطئ إيتاكا بينما كان يبدو نائما» تكون بدورها بلا إحالة. ولما كانت إحالة القضية هي قيمتها الصدقية، فإن قضيتنا هذه تكون بلا قيمة صدقية؛ فلا هي صادقة ولا كاذبة.[48]

وقد يحدث أن يكون مرجع إحالة اسم العلم[49] غير معلوم تمام العلم أو غير مؤكَّد وجودُه لِتعذُّر وقوع الدليل عليه عند جميع الناس، ولكن ذلك لا يمنعنا من افتراض وجوده مقدما. فلا أحد يعلم علم اليقين ما هو الجرم السماوي الأبعد عن الأرض، ولكن ذلك لا يمنع الاسم «الجرم السماوي الأبعد عن الأرض» من أن يكون له مرجع إحالة. ولا أحد منا عاصر النبي يحيى عليه السلام ولا حتى وقع له عليه الدليل المادي، ولكن ذلك لا يمنع الاسم «النبي يحيى» من أن يكون له مرجع إحالة. غير أن الأمر بخلاف ذلك فيما يخص الاسم «أوديسوس»؛ ففي الحالتين الأوليين نفترض مرجع إحالة للاسم (ولو كان للبعض شك في وجوده). أما في الثالثة، فلا يمكننا ذلك، ومن ثم فهو اسم بلا إحالة.

إذا أردنا استعمال معجم ساول كرايبك Saoul Kripke (1940-2022)، يمكننا القول إن فريجه قد انتهى إلى أن أسماء الأعلام التي تفشل في الإحالة على أشياء موجودة هي أسماءٌ فارغة vacuous names، ولكنه بذلك لم يُفقدها كل وظيفتها الدلالية semantic function إذ أبقى لها على إفادة المعنى،

48- من بين النظريات التي تصدت لمشكلة الوضع المنطقي للألفاظ الدالة على موضوعات غير موجودة ولن أخذها بالتحليل في هذا المقال تلك التي ترجع إلى ديفيد لويس David Lewis (1941-2001) القائمة على نظريته في **العوالم الممكنة** والتي ذهب فيها إلى أن القضايا التي تخبرنا عن موضوعات غير موجودة قد تصدق **صدقا مشروطا** إذا أخذنا في الاعتبار إمكانية توسيع نطاق الإحالة إلى عوالم أخرى غير عالمنا الواقعي، ومن ذلك عوالم الاعتقاد والخيال والتخييل والأسطورة وغيرها. لذلك فبينما يقول البعض إن القضية «وُضع أوديسوس على الشاطئ في إيتاكا بينما كان يبدو نائما» بلا قيمة صدقية (فريجه مثلا) ويقول البعض الآخر إنها كاذبة حتما (راسل، وسنرى كيف تكذب)، يمكننا أن نفترض أن هذه القضية مسبوقة ببادئة ضمنية هي «**يُروى في الأسطورة اليونانية** أنه وُضع أوديسوس على الشاطئ في إيتاكا بينما كان يبدو نائما» مثلما نقول: «**تبعا لروايات شيرلوك هولمز لكونان دويل فإن هولمز** يحب التباهي بحدة ذكائه» فتكون القضية صادقة شريطة تحويل اتجاه الإحالة من عالمنا الواقعي إلى عالم الأسطورة اليونانية مثلما تصوره **أوديسا هوميروس** (في الحالة الأولى) وإلى عالم التخييل الذي صورته **روايات كونان دويل** (في الحالة الثانية). ولمزيد من الإيضاح يمكن العودة إلى:

David Lewis, “Truth in fiction”, *American philosopher Quarterly*, Volume 15, Number 1, January 1978, 37-46

49- لاسم العلم عند فريجه معنى خاصة لا يختزل في أسماء الأشخاص والأشياء فحسب بل يستوعب حتى القضايا؛ فالقضية عنده اسم على للواقعة التي تصورها.

وذلك ما يُكسب نظريته بعض المتانة في مواجهة المشكلات المرتبطة باستعمال هذه الألفاظ، سيما عندما تدعم استعمالَها حدوسٌ تلازمنا وتجعلنا نتصرف حين الكلام كما لو كانت تلك الأسماء تحيل على كيانات من نوع معين وكما لو كانت القضايا الداخلة في تركيبها تصدق على هذه الكيانات. وهذا ما تعجز عنه نظريات أخرى كادت تُفرغ هذا النوع من الألفاظ من كل وظيفة دلالية **دون أن تقدر على تفسير حدوسنا المرافقة لاستعمالها**، وذلك شأن نظرية برتراند راسل.

راجع راسل التمييز الذي أقامه فريجه بين المعنى والإحالة رافضا نتيجته ومستعيضا عنه بالقول إن هذه الألفاظ رموز ناقصة تابعةٌ معانيها لمعاني الجمل الداخلة في تركيبها، فهي تعبيرات يبدو من صورها النحوية أنها تحيل على أشياء بينما تفيد صورها المنطقية أنها بلا إحالة تماما a denoting phrase that does not denote anything. إنها ليست أسماء إذاً، إذ «الاسم رمز تام يُستخدم للإشارة إلى شخص مخصوص».[50]

تبعاً للمنظور الذري المنطقي مثلما جسده راسل بادئ الأمر، لكي يكون اللفظ اسما حقيقيا، لا بد أن يقابله جزئي a particular واحد محدد يكون هو اسمه، «وإن لم يفعل فما هو باسم على الإطلاق».[51] وقد قصرَ وظيفة الإشارة إلى الجزئي على اسم العلم خاصة proper name دون الأسماء العامة، فهذه لا تصلُح إلا للوصف ولا تقوم مقام الجزئيات، غير أن اسم العلم بالمعنى المنطقي لا تستوعبه إلا ما نسميها في اللغة «أسماء الإشارة» (مثل «هذا» و«ذاك» وما ماثلهما)، فهي وحدها القادرة على القيام مقام الجزئي لتضمُّنِها معنى الاتصال المباشر به وهو شرط لا غنى عنه. يمكن للأسماء الشخصية مثل «سقراط» و«أفلاطون» و«باريس» أن تؤدي وظيفة الإشارة إلى الجزئي وتقوم مقامه، ولكن «بالمعنى المنطقي الضيق لكلمةٍ معناها جزئي، لا يمكن للاسم أن ينطبق إلا على جزئي يتصل به المتكلم اتصالا مباشرا. أنتم تذكرون أن آدم عندما سمَّى البهائم، فقد عُرضت عليه واحدة واحدة، فسمَّاها بعد أن صار على اتصال مباشر بها».[52] فعندما أكون متصلا بشيء في لحظة معينة فأقول «هذا أزرق» أكون حينئذ أشرت على نحو دقيقٍ إلى جزئي أو «موضوع فعلي» حاضر أمام حسي an actual object of sense باسم علم حقيقي يقوم مقامه.[53]

إذا أخذنا بهذا التحديد، فاستثنينا أسماء الإشارة (تحديدا) والأسماء الشخصية (تجاوزا)، سنضع بقية ما يُعتبر من ألفاظِ اللغة الطبيعية أسماءَ في خانة الأوصاف. ويفيّئ راسل هذا النوع من الألفاظ إلى فئتين:

50- Bertrand Russell, *The Philosophy of Logical Atomism*, London and New York: Routledge, 2009, p. 12

51- Ibid., p. 13

52- Ibid., p. 29

53- إن أكبر مشكلة يواجهها هذا المذهب هي تفسير استجاباتنا إزاء ألفاظ دالة على كليات أو غيرها من الموضوعات غير الموجودة (الأفكار والتصورات والمعاني وموضوعات التخييل والأسطورة وما شابهها)، فإن رد فعلي عندما أسمع اللفظ «هذا الكرسي» لا يكاد يختلف في شيء عن رد فعلي عندما أسمع اللفظ «هذه الفكرة» (أو حتى «هذا الشبح»)، اللهم إلا مرجع الإحالة بين الحالتين، حيث هو شيء عيني في الحالة الأولى ولكنه مجرد في الحالة الثانية، غير أن سلوكي التداولي لا يأخذ بعين الاعتبار هذا الاختلاف طالما أني أتصرف في الحالتين كما لو كنت استخدم اسم إشارة واسما عاما. وهذا ما قد يدفعنا إلى التساؤل من جديد عن ما هو الاسم الحقيقي (وحتى اسم العلم الحقيقي) من جهت فعله هو لا من حيث طبيعة المسمى.

أوصاف غير محددة Ambiguous descriptions وأخرى **محددة** Definite descriptions. ترِد الأولى عندما نتحدث عن «كذا وكذا so-and-so»، ومن أمثلتها «إنسان» و«حصان» و«مكتب حكومي»، بينما ترد الثانية عندما يُتحدث عن «الـ كذا وكذا The so-and-so» (في صيغة المفرد)، ومن أمثلتها «مؤلِّف «رسالة منطقية فلسفية»» و«الإنجليزي الوحيد الذي اعتلى كرسي البابا» و«أقدم مدينة مغربية». والملاحظ أن الأوصاف المحددة تتميز عن غير المحددة بخاصية وحيدة هي الإفراد والتخصيص، حيث نشير بها إلى «كذا وكذا واحد فقط». ولئن كانت ألفاظ النوعين معا تشبه الاسم وتلتبس معه حتى إنها تبدو لمن لا يمارس التحليل المنطقي كما لو كانت أسماء حقيقية (أسماء أعلام)، فإن الأوصاف المحددة هي الأكثر إثارة للمشكلات المنطقية والدلالية، لذلك استحقت أن ينصبَّ عليها كامل تمرين التحليل المنطقي الذي أجراه راسل، إذ ألفى عدم فهم بنيتها سببَ اعتبار بعض المناطقة ألفاظا مثل «ملك فرنسا الحالي» و«المربع الدائري» و«مؤلف «رسالة منطقية فلسفية»» و«رومولوس» أسماءَ أعلام قائمة مقام موضوعات محددة ودالة عليها والحال أن هذه وتلك متباينة تباينا منطقيا كبيرا.

فمن حيث علاقة اللفظ بما يشير إليه، لا يمكن للاسم أن يرد في قضية ويكون له معنى ما لم يوجد جزئي يسميه ويحدده، وذلك بخلاف التعبير الوصفي الممكن وروده في العبارة دون وجودِ جزئيٍ يحدده، فالتعبير الوصفي «ملك فرنسا الحالي» لا يسمِّي شخصا أو يعيِّن جزئيا، وكل ما لا يعيِّن شيئا جزئيا ليس اسما. وهنا تخرج من دائرة الأسماء الألفاظ التي نشير بها إلى كيانات متخيلة أو غير واقعية من باب الأولى، سواء كانت مركَّبة مثل «الحصان المجنح» و«المربع الدائري»، أو كانت بسيطة مثل «بيغاسوس» و«رومولوس». فـ«رومولوس» ليس اسما حقا وإنما هو مجرد وصف ناقص. [يبدو كما لو كان] يناظر شخصا قام بهذه الأشياء أو تلك، قتل ريموس، وأسس روما، وما إلى ذلك....ولكن لو كان اسما حقا، فإن سؤال وجود الشخص لم يكن ليُثار أبدا؛ لأن الاسم إما أن يسمي شيئا وإما لا يكون اسما، وبما أنه لا يوجد شخص هو رومولوس، لا يمكن أن يوجد اسم لذلك الشخص الذي لم يوجد أبدا، إنه مجرد وصف مبتور، وإن اعتقدتم أنه اسم سيوقعكم ذلك في أخطاء منطقية».[54]

أما من حيث علاقتهما بالقضية التي يرِدان فيها، فإن الاسم يعني بمفرده شيئا ويشير إليه ويقوم مقامه، [55] وبذلك فهو مكوِّن من القضية يناظر مكوِّنا من الواقعة التي تصفها، بخلاف الوصف المحدد الذي لا يعني بمفرده شيئا ولا يقوم مقامه، ومن ثم فهو ليس مكوِّنا من مكونات القضية، فلا يناظر مكوِّنا من مكونات الواقعة التي تصورها. فعندما نقول «لودفيج فتجنشتين هو مؤلف «رسالة منطقية فلسفية»»، فإن «لودفيج

54- Russell, The philosophy of Logical Atomism, op. cit., p. 79

55- قد يبدو هنا أن نظرية راسل تلتقي مع ما يُعرف بـ«النظرية السببية في الأسماء The causal theory of names»، والتي تقضي بأن ما يجعل من اللفظ اسما حقيقيا هو إمكانية رده عبر سلسلة سببية (تجريبيا) إلى شيء بوجوده وُجد هذا الاسم، فهو مرجع إحالته the referent. عندما أستعمل اللفظ «النبي آدم» في الخطاب تقودني سلسلة سببية إلى شخص مخصوص هو **النبي آدم** كأنه الفاعل الأول في استعمالنا للفظ على النحو الذي نستعمله به، وهذا ما يسوغ للناس اعتبار ذلك اللفظ اسما حقيقيا، وذلك بخلاف اللفظ «العنقاء» الذي لا يقودني سببيا إلى أي شيء ومن ثم لم يكن اسما. غير أن هذه النظرية تختلف كثيرا عن منظور راسل مثلما سنوضح.

فتجنشتين» هنا اسم علم يناظر شخصا محددا هو فتجنشتين، أما الوصف «مؤلف «رسالة منطقية فلسفية»»» فلا يناظر شيئا، ومن ثم فليس معناه مستقلا بذاته، فهو رمز ناقص.[56]

قد يكون من المبالغ فيه اعتبار «كل المشكلات المتعلقة بالدلالة ناتجة عن تحليل خاطئ للقضايا التي تضم عباراتُها اللفظية تعبيرات دالة [أو وصفية]»[57]، ولكن قيمة تحليل القضايا المشتملة على هذا النوع من التعبيرات قد تتضح أكثر عندما يتعلق الأمر **بقضايا مشتملة على أوصاف لكيانات زائفة أو لموضوعات غير حقيقية**، حينها يضعنا حضور هذه التعبيرات في مفارقة دلالية تترتب عليها مشكلة منطقية تتمثل في أن القضايا الواردة فيها تصبح لغوا nonsense، وذلك بأحد طريقين: إما بأن تكون صادقة وكاذبة (فتصدق ويصدق نفيها) في الوقت ذاته، أو تكون غير صادقة ولا كاذبة (فلا تصدق ولا يصدق نفيها) في الوقت ذاته، فيوضع قانونا عدم التناقض والثالث المرفوع على المحك. ويُفترض في التحليل الذي تمدنا به نظريتا الأوصاف والدلالة عند راسل أن «يمكِّننا من رد كل القضايا التي ترِد فيها تعبيرات دالة (أو وصفية) إلى صور forms لا ترِد فيها هذه التعبيرات».[58]

لنأخذ مثال راسل الأشهر: تبعا لقانون الثالث المرفوع، إما أن تصدق القضية «الملك الحالي لفرنسا أصلع» أو يصدق نفيها لا محالة. ولكننا إذا أحصينا الأشياء التي لها خاصية الصلع كما أحصينا الأشياء التي ليست لها هذه الخاصية، لم نجد **ملك فرنسا الحالي** في أي من القائمتين، فلا تصدق أي من القضيتين، وهكذا يُنتهك قانون الثالث المرفوع.[59] ومن أجل حل المشكلة يجب تحليل القضية ككل للتخلص من التعبير الوصفي الداخل في تركيبها، فإما تغدو صادقة أو يصدق نفيها. بمقتضى هذا التحليل تستحيل القضية «الملك الحالي لفرنسا أصلع» إلى: «يوجد كائن x، بحيث أن x هو ملك فرنسا الحالي، وأن x أصلع» أو قُل «يوجد شخص واحد وواحد فقط هو ملك فرنسا، وهو ملكها الحالي، وهو أصلع»، فيختفي الوصف «ملك فرنسا الحالي»، ونصبح أمام قضية وجودية مركبة من ثلاثة موصولات، وبما أن أحدها كاذب فالوصل بينها كله يكذب، وهو شرط كاف لكذب القضية الأصلية «الملك الحالي لفرنسا الحالي أصلع».

ولا يختلف أمر هذه القضية عن مثيلتها «المربع الدائري غير موجود»، التي يسقط إزاءها قانون عدم التناقض، ففضلا عن كونها قضيةً الموضوعُ فيها ليس كيانا a non-entity، فهي تبدو صادقة لنفيها

56- Russell, The philosophy of Logical Atomism, op. cit., p. 85

57- Russell, On Denoting, op. cit., p. 480

58- Ibid., p. 482

59- Ibid., p. 485

الوجود عن كيان زائف غير متحقق في العالم الفيزيائي هو «المربع الدائري»[60]، ولكنها تبدو كاذبة طالما أنها تفترض شيئا محددا ثم تنفي عنه الوجود، فنلفي أنفسنا من جديد أمام لغو يهدد قانون عدم التناقض. ومن أجل استبعاد المشكلة وحل اللغز مرة أخرى ينبغي تحليل القضية حتى يختفي منها التعبير الوصفي «المربع الدائري» على النحو الآتي: «هناك كيان واحد ووحيد هو مربع، وهو دائري، وهو لا يوجد»، وهذا وصل بين ثلاث قضايا كاذبةٌ إحداها على الأقل، بما يعني أنه كاذب في مجموعه. والأمر ذاته يقال عن القضايا التي تدخل في تركيبها أوصاف محددة من عالم الأسطورة أو من عالم الخيال: «فإن دخل **رومولوس** في أحد أقوالنا، سيكون من اللغو القول إنه غير موجود؛ لأن القضية لا تتسع لمكوّن ليس شيئا على الإطلاق. ينبغي أن يكون كل واحد من مكوناتها شيئا من أشياء العالم، فإن تضمنت **رومولوس**، سواء بالقول إنه وُجد أو بالقول إنه لم يوجد، لا يمكن أن تصدق في أي من الحالتين ما لم يكن وُجد ولا حتى أن تدل على شيء».[61]

يعني هذا التحليل أن كل قضية متضمنةٍ لاسم زائف **تكذب بالضرورة**، فالصدق صفة للقضايا المؤلفة من أسماء حقيقية فقط.[62] ويمكننا تركيز فائدة هذه النظرية في أربعة أمور: **أولا**، على مستوى الربط بين الدلالي والأنطولوجي، فهي تقضي بأن ما يبدو أنها أسماء ليست هامة إطلاقا في المسألة الأنطولوجية، لأنه يمكن تحويلها إلى أوصاف والتخلص منها تماما؛ وذلك ما لا يمكن أن يُجرى على الأسماء الحقيقية، أسماء الأعلام. وقد وضح هذا الأمر أكثر ويلارد كواين عندما حلل ما سماها «فجوة بين المعنى meaning والتسمية naming».[63] **ثانيا**، على المستوى الدلالي، فقد وضع راسل عبء الإحالة الموضوعية عن

60- ذهب آخرون إلى أن «المربع الدائري مستطيل» تصدق على مربع دائري مستطيل ممكن تصوره في عالم ممكن آخر أو عالم محتمل، حيث الأشكال الهندسية قد تكون مربعات ودوائر ومستطيلات في الوقت ذاته، وأنها تصدق في ذلك العالم مع أن عالمنا هذا لا يسمح بتصور هذا النوع من «الموضوعات». إذا أخذنا في الحسبان مواقفنا القصدية وما يجعلها ممكنة، فإننا نعثر على بعض هذه المواقف، حيث تتوجه إلى عوالم مستحيلة، فحتى لو أن القليل منا يفكر في طريقة لتربيع الدائرة أو يتمنى امتلاك جبل من ذهب أو أن يصير أبا لوالده فهي مع ذلك مواقف قصدية موجهة نحو مستحيلات تتحقق في عوالم اعتقاد لا يستحيل فيها تربيع الدائرة أو امتلاك جبل من ذهب. ذلك ما نجده لدى كل من ديفيد لويس مثلا وهو يتحدث عن «الصدق في التخييل»، ولدى غراهام بريست وهو يتناول «خلق اللا موجودات». انظر:

David Lewis, "Truth in fiction", *American philosopher Quarterly*, Volume 15, Number 1, January 1978, 37-46

Graham Priest, *Creating Non-Existents, Truth in Fiction*, Ed. Franck Lihoreau, Ontos Verlag, Frankfurt, Paris, Lancaster, New Brunswick, 2011, 107-118

61- Russell, The philosophy of Logical Atomism, op. cit., p. 78

62- قدم راسل تحليلا ثانيا للقضايا التي ترد فيها تعبيرات وصفية أو تعبيرات لا تدل على شيء يمكِننا من التخلص من هذه التعبيرات وتجاوز التهديد الذي تمثله للقوانين المنطقية الأساسية، ويقوم على التمييز بين ورود التعبير الوصفي في موقع أساسي من القضية ككل وورودِه في موقع ثانوي منها primary and secondary occurrences، بما يجعل بعض القضايا التي يرد فيها صادقة. فعندما أقول «الملك الحالي لفرنسا أصلع»، من الواضح أن هذه قضية كاذبة بمقتضى التحليل الأول أعلاه، بيد أنه يمكنني نفيها بالقول: «ليس الملك الحالي لفرنسا أصلعا»، فأحصل على قضية تقبل صيغتين من التأويل يختلف المعنى بينهما تمامًا لإختلاف بنيتيهما وموقعي ورود التعبير «الملك الحالي لفرنسا» في كل بنية: الصيغة الأولى هي «من الكذب أن هناك كيانا x وهو ملك فرنسا الحالي وهو أصلع»، وهذه قضية صادقة تنفي وجود كيان يتصف بكونه ملك فرنسا الحالي وكونه أصلعا. أما الثانية، فهي «يوجد كيان هو ملك فرنسا الحالي، وهو ليسا أصلعا» وهذه كاذبة طالما أنها تثبت الوجود والصلع لكيان غير موجود. في الصيغة الأولى فإن التعبير «الملك الحالي لفرنسا» ورد في موقع ثانوي، فالنفي هناك ليس داخلا على التعبير الوصفي وإنما على القضية الجزئية «هناك كيان x وهو ملك فرنسا الحالي وهو أصلع» الداخل في تركيبها التعبير المذكور، وهذه بدورها مجرد جزء من القضية ككل «**من الكذب أن** هناك كيانا x، وهو ملك فرنسا الحالي، وهو أصلع». أما في الصيغة الثانية فإن التعبير وارد في موقع أساسي من القضية ككل وليس في قضية جزئية مكوّنة لهذه فحسب. ولا يختلف أمر «المربع الدائري» أو «الجبل الذهبي» أو «بيغاسوس» عن «الملك الحالي لفرنسا»؛ تبقى القاعدة هي: إن كل القضايا التي يرد فيها تعبير غير دال على شيء في موقع أساسي هي قضايا كاذبة، وإن نفي كل واحدة من هذه القضايا يكون صادقا، ولكن في كل نفي يرد التعبير في موقع ثانوي.

63- Quine, On What There Is, op. cit., p. 28

التعبيرات الوصفية ليلقيه على عاتق أسماء الأعلام وحدها (أو حتى على كلمات الأسوار التي لا تقتضي إفادتها للمعنى وجودَ «الملك الحالي لفرنسا» أو أي موضوعات أخرى). **ثالثا**، على المستوى التداولي، فقد بيَّن الفيلسوف كيف يمكننا استخدام ما يبدو ظاهريا أنها أسماء دون أن يسقطنا ذلك في اللغو وتهديد القوانين الأساسية في المنطق؛ فبدلَ السقوط في براثن المفارقة الدلالية التي تسكن عبارة «الملك الحالي لفرنسا غير موجود»، يمكن للمرء القولُ ببساطة «لا يحيل لفظ «الملك الحالي لفرنسا» على شيء». **رابعا**، على المستوى المنطقي، إذ يحل هذا التحليل مشكلةَ الانتهاك الذي يتهدد قانوني عدم التناقض والثالث المرفوع وثنائية الصدق والكذب الملازمة لهما، فإنه يبيّن بالمثل أن التعبيرات الوصفية أو الأسماء الزائفة **تعبيرات حملية** لا تصلح لتكون **موضوعات للحمل** في أي قضية. وهذا ما انطلقت منه نظريات دلالية ومنطقية أخرى في تعاطيها مع المشكلة الدلالية موضوع نظرنا. وقبل الالتفات إلى إحدى هذه النظريات أود بيان بعض البياضات في ما قضت به نظرية راسل لأُظهر أن ما أتت به (هذه النظريات) لم يكن من نافلة القول (ولا إيراد بعض تحليلاتها هنا ينطبق عليه ذلك الوصف) وإنما كان تقويما لما وُجد في النظرية الأصلية من عيوب وسدًّا لما عُثر عليه فيها من فجوات.

عندما قضت نظرية الأوصاف بكذب القضايا المشتملة على ألفاظ لا تسمِّي جزئيات من العالم الفيزيائي (أوصافا أو أسماء أعلام زائفة)، فقد بنُي الحكم فيها على أمرين اثنين: **الأول** هو عدم تمييزها بين أنواع الموضوعات غير الموجودة بسبب حصرها معنى «الموضوع الموجود» في جزئيات العالم الفيزيائي، والحال أن مستويات عدم وجود **ملك فرنسا الحالي** و**رومولوس** و**العدد السالب الصحيح** تتفاوت. أما الأمر **الثاني، فهو** أنها بنت الحكم الدلالي مباشرة على أساس المعطى الأنطولوجي فأغفلت عتبة ثالثة بينهما لها أهميتها وهي العتبة الإبستيمولوجية؛ فإن اختلاف مستويات عدم الوجود ينشأ عنه اختلاف في مستويات الاعتقاد في صدق القضايا المعبَّر عنها، وهذا ما يُحدث فارقا في القيم الصدقية لأنواع من القضايا المشتركُ بينها أن موضوعاتها لا توجد. فلا بد أني سأحكم بكذب القضية «ملك فرنسا الحالي أصلع» حتى لو كنت مينونغيا (ومن المشكوك فيه ما إن كان أحد يعتقد في صدقها)، ولكن عندما أقول «يحب شيرلوك هولمز التباهي بقوة ذكائه»، فإني أعتقد في صدق القضية **صدقا مشروطا** بتحويل اتجاه الإحالة صوب عالم آخر غير العالم الواقعي. أما عندما أقول: «كل الأعداد الصحيحة السالبة أصغر من الصفر» فإني أعتقد في صدق القضية **صدقا جازما** غير مشروط (دون حاجة إلى اعتبارها مجرد دالة قضية وتحليلها بتشخيص متغيراتها). تخبرنا القضايا الثلاث معا عن موضوعات لا توجد، ولكن ذلك لا يعني انعدام الاختلاف بين هذه الموضوعات على المستوى الأنطولوجي، فإن المعنى الذي نقول به «ملك فرنسا الحالي لا يوجد» ليس هو نفسه المعنى الذي نقول به «شيرلوك هولمز لا يوجد» أو «الأعداد الصحيحة السالبة لا توجد»؛ وذلك ما يُترجمه حضور عنصر **الاعتقاد في صدق القضية المعبَّر عنها** أو غيابه إزاء كل قضية. وربما كان هذا ما دفع فلاسفة آخرين إلى القول بالصدق المشروط لبعض القضايا التي تتحدث عن موضوعات لا توجد، مثل ديفيد لويس في نظريته في **الصدق في التخييل** Truth in fiction، كما دفع آخرين إلى القول بصدقها

التام، رغم اختلال صورها النحوية؛ وذلك شأن نظرية جلبرت رايل Gilbert Ryle في **التعبيرات المضللة منهجيا** Systematically misleading expressions.

فقد ركز هذا الفيلسوف الإنجليزي تحليله على ثلاثة أنواع من الأقوال، وهي: أ- الأقوال شبه الأنطولوجية Quasi-ontological statements، وهي التي يبدو من صورتها النحوية أنها تثبت الوجود لكيانات حقيقية أو تنفيه عنها باستعمال أسماء أعلام حقيقية بينما لا تفعل ذلك بمقتضى صورتها المنطقية. ب- الأقوال شبه الأفلاطونية Quasi-Platonic statements، وهي التي يبدو من تركيبها أنها تشير إلى وقائع متعلقة بكليات بينما تشير بنيتها المنطقية إلى وقائع مختلفة تتعلق بأفراد. ج- الأوصاف شبه المحددة Quasi-unique descriptions، وهي التي تتصرف نحويا كما لو كانت أوصافا محدَّدة لأفراد، بينما هي تفتقر للإحالة تماما. ولكن المشترك بين هذه الأنواع جميعا أنها «توحي بوجود أنواع جديدة من الموضوعات فتغرينا بمضاعفة الكيانات...وفي كل واحد منها يساء فهم التعبير بتأويله على أنه تعبير إشاري لمجرد أنه يبدو نحويا مثل التعبيرات التي تحيل على أشياء عند استعمالها، بينما هو في الحقيقة لا يحيل على شيء».[64] لذلك لزم إعمال نَصْل أوكام القاضية قاعدته بالآتي: لا تُعامِل كل التعبيرات التي تشبه أسماء الأعلام والأوصاف المحددة كما لو كانت كذلك حقيقية، فقد تكون أسماء زائفة وأشباه أوصاف.

ويقصد رايل بـ«التعبير المضلل منهجيا» ذلك الذي توحي صورته النحوية بواقعة غير الواقعة التي تصورها صورته المنطقية، وهو يفعل ذلك **منهجيا** لأنه يقتسم صورته المضللة مع مجموعة كبيرة من الأقوال وعلى النحو ذاته؛ إذ يُزعم بصورتها النحوية ما لا تفعله صورتها المنطقية. عندما أُثبتُ لـ«الأبقار اللاحمة» المحمولَ «لا توجد»، ويكون إثباتي صادقا، فإنه ليس يصدق على الأبقار اللاحمة، لأن العالم لا يضم أبقارا لاحمة بين موضوعاته، فكيف لي الحديث عنها؟! إن الأبقار اللاحمة لا تنتمي إلى مجموعة موضوعات الحمل، لأنها **ليست كيانا**. وإذ يوحي التعبير «الأبقار اللاحمة لا توجد» بأن هناك موضوعا في العالم هو الأبقار اللاحمة وأنه غير موجود، فهو بذلك تعبير مضلل. ويمكن أن يرتفع التضليل بإعادة صياغة الجملة صياغة شارحة paraphrasing تُظهر الصورة المنطقية للقضية المعبَّر عنها، فيختفي بمقتضى ذلك الاسمُ الزائف «أبقار لاحمة» تاركا مكانه في الجملة لاسم حقيقي دال على موضوع حقيقي، وذلك من قبيل قولنا «لا أبقار هي لاحمة» أو «لا حيوانات لاحمة هي أبقار» أو «لا شيء هو بقر وهو لاحم في الوقت ذاته»، فتغدو بذلك الصورة النحوية للجملة مطابِقة لصورتها المنطقية.

وليس يختلف الأمر بين القول شبه الوجودي والأقوال التي يُزعم بها الحديث عن كليات، مثل «الكذب موجب للَّوم» و«أكره فكرة الذهاب إلى المستشفى». تبدو هاتان العبارتان مفهومتين، وربما لن ينازع أحد في مضمونيهما القضويين ولا في تركيبيهما النحويين ولا حتى في صورتيهما المنطقيتين، غير أنهما

64- Ryle, Systematically Misleading Expressions, op. cit., p. 165

مضلِّلتين في التعبير عن ما تعبّران عنه؛ فما نعنيه بهما هو نفس ما نعنيه بعبارتين أسلم صورة (أو على الأقل أقل تضليلا) من قبيل «كل من يكذب يستحق أن يُلام على كونه يكذب»، و«أُحس بشعور سيء عندما أفكر في ما سأمر به إذا ذهبت إلى المستشفى». فَليس الكذب هيئة قهرية تُلزم بشيء، أو كيانا يتصف بصفة مثلما توحي بذلك الصورة النحوية للعبارة الأولى، لذلك لم يكن الكذب هو موضوع القول فيها، إنما كان الحديث عن الشخص الذي يكذب؛ وهذا ما تظهره الصيغة السليمة «كل من يكذب يستحق أن يُلام على كونه يكذب» التي يتلاشى فيها الاسم الزائف «الكذب» ويختفي تاركا مكانه للتعبير الحملي «...مَن يكذب». ومن ثم فبينما يبدو في التعبير الأصلي أن لفظ «الكذب» يحيل على الموضوع الذي أُثبتت له صفة، يتضح في التعبير الجديد أنه محض صفة، ونحن نقول إن أي شخص تكون له تلك الصفة يستحق بها صفة أخرى (يستحق أن يُلام).[65] والأمر ذاته ينطبق على القول «أكره فكرة الذهاب إلى المستشفى»، فليس من الصدق حرفيا أن هناك كيانا هو «فكرة الذهاب إلى المستشفى» حتى يكون شيئا أكرهه، إنما يضم العالم أشخاصا يفكرون ولا يشمل بالإضافة إليهم أفكارا، وما أعنيه بالقول الأصلي يمكنني التعبير عنه على نحو أسلَم بالقول «أُحس بشعور سيئ عندما أفكر في ما سأمر به إذا ذهبت إلى المستشفى».

يتضح بالتحليل المنطقي للقولين إن «الكذب» و«فكرة الذهاب إلى المستشفى» ليسا اسمين حقيقيين لموضوعين فيزيائيين بل هما تعبيران حمليان predicative expressions خفيان دال كل منهما على اتسام شيء بسمة. وإن أردنا التعميم قلنا إن «الألفاظ العامة، أو الكليات، ليست أسماء حقيقية لموضوعات الحمل»[66]، فلا تقل «الألوان تقتضي الامتداد»، وقل بدل ذلك «مهما يكن ما هو ملون فهو ممتد»، ولا تقل «طول الأمل يُمرض القلب» طالما تستطيع التعبير عن مقصودك بالقول الأسلم «كل من يأمل في أشياء سُدى يمرض قلبه».

وإذ تبدو جليةً تبعيةُ هذا التحليل لنظرية راسل في «الأوصاف» واعتماده الآلية ذاتها ولنفس الغرض، فإن المسافة بين التحليلين تظهر حين البت في القضايا المشتملة على اسم زائف. فبينما نحتْ نظرية «الأوصاف» نحو الحكم بكذب هذه القضايا في صيغة الإيجاب، وبكذب نفيها الواردِ فيه الاسمُ الزائف في موقع أساسي، وحصر إمكانية الصدق في حالة ورود ذلك الاسم في موقع ثانوي من نفي القضية، فإن نظرية «التعبيرات المضللة منهجيا» قد سلكت طريق البت في هذه القضايا على نفس منهج البت في القضايا سليمة التركيب؛ إما تصدق أو يصدق نفيها، فلا تهدد قانوني عدم التناقض والثالث المرفوع وثنائية الصدق والكذب بمقتضى صورها المنطقية وإنما تفعل ذلك بمقتضى صورها النحوية فحسب، وهو يرتفع ما أن تعاد صياغتها الصياغة السليمة. إن القضايا التي حللناها أعلاه ليست حوامل معنى فحسب وإنما هي **صادقة** جميعا، تشير إلى وقائع حقيقية وتعني ما تعنيه الجمل الشارحة لها، وإن القائل بها لابد يعلم طبيعة الوقائع التي تشير إليها،

65- Ibid., p. 151

66- Ibid., p. 151

«غير أن هناك فخا في صور تعبيره...فهي غير مناسبة في صورها النحوية للصور المنطقية للوقائع التي استُعملت للإشارة إليها، بل تناسب وقائع ذات صور منطقية مختلفة تماما».[67]

وبصرف النظر عن ما آل إليه المنظور التحليلي من تباين في النتائج، يتضح أنه لم يفد من بتِّه في المسألة الدلالية حلًّه للمفارقات الناشئة عن استعمال ما دعاها «أسماء زائفة» أو «تعبيرات مضللة» وصونه بعض القوانين المنطقية من انتهاكاتِ هذا الاستعمال فحسب، بل أفاد من ذلك أيضا إعادة صياغة موقفه من المشكلة الأنطولوجية الصياغة الخالية من أي تناقض أو مفارقة، وربما كانت تلك مزية يفتقر إليها الموقف المضاد. ولكن أكان لمينونغ وأنصار نظريته من طريق آخر؟

قامت **نظرية الموضوعات** عند أليكسيوس مينونغ على مبدأ ظاهرُه مفارقة، وهو أن «هناك موضوعات **يصدق** عليها القول إنها لا توجد»، وفي مقدمتها (وهي المتنازع في استحقاقها اسم «موضوعات») المستحيلات والممكنات والكليات وغيرها من المجرَّدات وجل ما يكُون موضوعا لشكل من أشكال القصدية دون أن نجده متجسدا في الزمان والمكان أو نعثر عليه في بنيةِ واقعةٍ. ويحتكم الكلام عن الصدق في هذه النظرية لثابتين مترابطين: **الأول**، أن القضايا التي تُثبت للموضوعات صفات معبِّرةً عن أحوال معينة أو تنفيها عنها **كلُّها قضايا صادقة**، سواء كان الموضوع موجودا أم كان يتمتع بمرتبةِ كينونةٍ دون الوجود، أم لم تكن له كينونة على الإطلاق. بعبارات الذريين والوضعيين المناطقة (!!!) فإن هذه القضايا صادقة صدقا تحليليا، وبعبارة مينونغ ذاته، فإن صدقها «معطى أولي». فما دام حال موضوع إحالتها «معطى يسبق تحديدنا لكينونته أو عدمها»[68]، وبما أن هذا الحال هو امتلاك الموضوع خاصيةً أو أكثر (تعبِّر عنه القضية بالإثبات) أو افتقاره إليها (تعبِّر عنه القضية بالنفي)، وحيث أن كل قضية تتحدث عن موضوع إنما تتحدث عنه بإثبات أو بنفي، فإن كل قضية من هذا القبيل لا بد صادقة. فلا يمنعني عدم وجود المستقيم في الزمان والمكان من الحديث عن طوله، ولا يمنعني عدم وجود العدد وجودا فيزيائيا من الحديث عن كونه موجبا أو سالبا، فما الذي يمنعني إذاً من الحديث عن أحوال المربع الدائري أو الجبل الذهبي؟ إن القضايا التي تتحدث عن هذين الموضوعين الأصيلين «ليس يصادف أن تكون صادقة، بل هي صادقة بطبيعتها، صادقة من الداخل إن جاز التعبير؛ ذلك أن الحكم (كفعل قصدي) لا يكون صادقا بقدر ما يكون له موضوع يوجد، ولا حتى بقدر ما يكون له موضوع له كينونة، وإنما فقط بقدر ما يتوجه إلى حال متمتع بكينونة. فأنَّ هناك بجعات سود وليس هناك متحرك دائم، ذانك حكمان صادقان معا، ولكن الأول يخص موضوعا موجودا، بينما يخص الثاني موضوعا غير موجود».[69]

67- Ibid., p. 146 and 150

68- Meinong, The Theory of Objects, op. cit., p. 84

69- Ibid., 90

أما المحدد **الثاني**، فطالما لا يُشترط في الحكم وجود الموضوع ليصدق، لا يُشترط في مضمونه أن يكون مطابقا لحالٍ جزئيٍ من جزئيات العالم الفيزيائي أو يكون صورةً لواقعة من وقائع هذا العالم، إنما يلزم فقط أن يكون مطابقا لحالٍ موضوع يحيل عليه الحكم. تكذب القضية «المربع الدائري موجود» لأنها تنسب حالا لموضوع ليس هو حاله، وتصدق القضية «المربع الدائري غير موجود»؛ لأنها تسند حالا لموضوع هو له، وتكذب القضية «الجبل الذهبي موجود» لأن مضمونها القضوي غير مطابق لواقعة، وتصدق القضية «الجبل الذهبي ليس ذهبيا»؛ لأنها تتحدث عن موضوع متناقض (مستحيل) بشكل مطابق لحاله. لا تكترثْ للتناقض في هذه الحالات؛ فماذا تنتظر من قضية موضوعها مستحيل؟!

لقد كان مينونغ يدرك أن عبارته الأشهر «**هناك موضوعات يصدق عليها القول إنها لا توجد**» ترتدي زي المفارقة، فكيف يصدق أن هناك أشياء لا توجد؟ تبدو العبارة غير متسقة inconsistent لأن كلمة «هناك» غالبا ما تؤخذ مرادفا لـ«يوجد»، بما يعني أن الدعوى «هناك أشياء لا توجد» تعني فقط «توجد أشياء لا توجد» وهذه أجلى صورة للتناقض. لنضع جانبا الدافع الأكبر الذي حرك الفيلسوف لإنشاء نظرية الموضوعات كعلم فلسفي أشمل، ولنتغاضى عن المرافعة التي قدمها تيرانس بارسونز Terence Parsons (1939-2022) في الدفاع عن تباين معنيي «هناك» و«يوجد» وعدم ترادفهما، ثم لنسلِّم لمينونغ بأن الموضوعات التي لا توجد يمكن أن تكون بطريقة أو بأخرى موضوعات لحمل صادق، فهل كانت أمام الرجل خيارات أخرى للتعبير عن أطروحته غير أسلوب التعبير المتناقض؟ هل كان يعي حقا أن قوله لبس لباس المفارقة بلا داع؟

يسعُنا أن نتصرف مثلما يتصرف عامة الناس مع الألفاظ المفردة التي «تحيل» على موضوعات لا توجد، فنسلِّم بأن هذه الأخيرة يمكن أن تكون بطريقة أو بأخرى موضوعات لحمل صادق، ونختار الجواب بالإيجاب عن السؤال أعلاه (مثلما فعل رودريك شيشولمRoderick Chisholm 1916-1999)، أو قد نتجاوز مجرد التسليم ونختار الجواب بالسلب (مثلما فعل بارسونز) شريطة أن نرفع الترادف المفترض بين «هناك» و«يوجد». فإن سلكنا المسلك الأول، آخذين في الحسبان طبيعة الموضوعات التي نتحدث عنها وأنواعها، فقد نفعل ذلك بإحدى الطرق الآتية[70]:

أ- قد نفعل ما فعل جلبرت رايل، وعوض القول إن «المربع الدائري غير موجود» نقول «كل ما هنالك يوجد على نحو، حيث لا يكون مربعا ودائرة في الوقت ذاته» أو «المربعات لا تكُون دائرية»، غير أن مينونغ سيرفض هذين القولين الشارحين بدعوى أنهما يخلوان من الإحالة على **موضوع حقيقي** هو موضوع الحمل في القول الأصلي: فالموضوع في القول الشارح الأول هو «كل ما هنالك» وفي الثاني

70- هذه هي الخيارات التي ألفاها رودريك شيشولم تجنبنا طريقة التعبير المتناقضة عن دعوى معقولة هي أن «الموضوعات التي لا توجد يمكن أن تكون موضوعات حمل صادق». انظر الصفحات 249 و250 و251 و252 من مقاله Beyond Being and nonbeing.

هو «المربعات» بينما في القول الأصلي هو «المربع الدائري». وباختلاف اتجاه الإحالة يختلف المضمون القضوي ويمتنع تطابق المعنى لا محالة.

ب- قد نحيل على الموضوع دون أن يتضمن قولنا لا أنه موجود ولا أنه غير موجود، كأن نقول: «الجبل الذهبي من ذهب» فيصدق قولنا صدقا تحليليا؛ لأن مجرد النظر في معنيي الموضوع والمحمول يكفي للحكم بصدق القضية. ولئن اعترض معترض بأن القول الأصلي يعني فقط أنه «يوجد شيء x هو الجبل ذهبي، وهو من ذهب»، لن يكون لاعتراضه معنى لسببين اثنين: أولهما أن القول الأصلي لا يخبر بوجود شيء، وثانيهما أننا سلَّمنا مقدما بأن «الجبل الذهبي» موضوع حقيقي، فكيف لقول كاذب يثبت الوجود أن يكون شارحا لقول صادق يثبت خاصية أخرى؟!

ج- قد نسلك مسلك اعتماد لغة اللغة (أو اللغة الفوقية) دون أن نحيل مباشرة على الموضوع غير الموجود، فنقول مثلا «في اللغة الإنجليزية يشير لفظ «round-square» إلى شكل هندسي غير موجود هو المربع الدائري». ومع أن «المربع الدائري» وارد هنا في موقع ثانوي من القضية ككل وليس هو موضوع الحمل أساسا، فإنه مع ذلك جزء من موضوع الحمل، وهو حمل صادق، وهذا يكفي مينونغ.

د- أحيانا يكون الموضوع جزءا من خيال شخص أو من أسطورة شعبية أو من عمل تخييلي لمبدع معين، وفي هذه الحالة قد نقول مثلا «ينتمي بيغاسوس إلى الأسطورة اليونانية وليس إلى العالم الواقعي» أو نقول «شيرلوك هولمز مجرد شخصية تخييلية من إبداع كونان دويل»، وفي هاتين الحالتين معا يصدق قولانا بنفي الوجود عن الموضوعين دون سقوط في المفارقة.

ه- قد يكون القول خبرا عن موضوعِ موقفٍ قصدي لشخص ما، عندما أقول: «الشبح الذي رأيت في حلمي الأخير كان مخيفا» أو أقول: «الجبل الذي أتخيل من ذهب» أو أقول «الإله الذي يعبد البوذيون غير موجود»، فإني أكون أمام قضايا صادقة تخبرنا بتوجُّه أشكال ثلاثة من القصدية («رؤيتي في الحلم» و«تخيُّلي» و«عبادة البوذيين») إلى موضوعات غير موجودة («الشبح الذي رأيت في حلمي الأخير» و«الجبل الذي أتخيل» و«الإله الذي يعبد البوذيون»). ولا يمكن لنظرية الأوصاف عند راسل أن تعيد صياغة أي من هذه القضايا ما لم تجعلها قضايا وجودية، ولكنها إن فعلت ذلك لم تكن المضامين القضوية للجمل الشارحة مطابقة لمضامين القضايا الأصلية، بما يعني أن ثمن التخلص من الإحالة على هذه الموضوعات خلال إعادة الصياغة الشارحة يكون هو مغايرة المضامين القضوية للأقوال الأصلية.

خاتمة

يترتب على توسيع دائرة الموضوعات لتستوعب ما لا يوجد توسيعُ نطاق إحالة الأسماء ليتجاوز الإشارة إلى ما يوجد؛ فبناء على بيانات سلوكيات المتكلمين، يمكننا التمييز بين أمرين اثنين، الفشل في الإحالة من جهة والإحالة على موضوعات لا توجد من جهة أخرى، حتى إذا استقام هذا التمييز أمكننا تقسيم الأسماء دلاليا إلى أقسام ثلاثة: إن بعض الألفاظ يحيل وبعضها لا يحيل، وإن بعض ما يحيل يحيل على موضوعات توجد وبعضها الآخر يحيل على موضوعات لا توجد. وإن بعض ما لا يحيل على موضوعات توجد يفشل في الإحالة تماما، ولكن البعض الآخر يفشل في الإحالة على أشياء موجودة؛ لأنه ينجح في الإحالة على موضوعات لا توجد. بعبارة أخرى، يمكننا التمييز بين **إحالة ضيقة** قاعدتها الأساسية هي عبارة فتجنشتين المتقدم «حدود لغتي هي حدود عالمي»، فنعتبرها مثلما اعتبرها جون ديوي «سلوكا» لغويا أو دلاليا يسير نحو موضوع يُرى رأي العين، **وإحالةٍ واسعة** قاعدتها الأساسية هي «حدود لغتي هي حدود أفق قصديتي»، فنحسبها سلوكا لغويا أو دلاليا لا يمكن حصر اتجاهات سيره.

تزكي هذا التقسيم النظرة التداولية[71] لهذه الألفاظ؛ فإن مستعملي اللغة الطبيعية كثيرا ما يتصرفون كما لو كانوا يحيلون على موضوعات لا توجد، حيث لا يمكنك أن تطابق بين فعلهم ذاك وتصرفهم عندما تكون ألفاظهم بلا إحالات تماما. إن كل مطلع على الأسطورة اليونانية ليس مستعدا للإقرار بأن الاسمين «زيوس» و«هيرمس» في القضية «ليس هيرمس هو رئيس آلهة الأسطورة اليونانية، بل رئيسها زيوس» يحيلان على موضوعين أسطوريين فحسب، بل هو جاهز أيضا ليجزم بصدق القضية الواردَين فيها، وليس يفعل أيًّا من ذلك مع القضية «الملك الحالي لفرنسا أصلع» لأنه يلفي لفظ الموضوع فيها فارغا تماما، فلا يجزم بصدقها ولا بكذبها، إنما يقول إنها لا تخبر بشيء أو بلا معنى أو بلا قيمة صدقية، أو على الأقل إن في قيمتها الصدقية ثغرة ما a truth value gap. لذلك نتعامل مع الأسئلة حول «زيوس» و«هرمس» (عن مكانتهما في الأولمب وعن قواهما وأفعالهما ومغامراتهما وعلاقاتهما، إلخ) كأسئلة عادية ونحيل على كل منهما بضمير خاص (**هو**، أو **هما**) وذلك ما لا نفعله مع «الملك الحالي لفرنسا» الذي نعتبر السؤال عنه سؤالا زائفا لا يختلف في شيء عن السؤال «هل الرجل الذي يجلس بجانبك يمسك قلما في يده؟» عندما لا يكون هناك رجل يجلس بجانبك، [72] غير أن القيمة التداولية لهذا التمييز تكون أكثر وجاهة ومتانة عندما تُمثَّل الموضوعات غير الموجودة بموضوعات التخييل والكليات وموضوعات الرياضيات وما شابهها، ولكن ما أن يُؤخذ في الاعتبار طيف الموضوعات المينونغية بكل تلويناته، فإن الحدود بين **الألفاظ التي تحيل على ما لا يوجد** و**الألفاظ التي تفشل في الإحالة تماما** تكاد تنمحي، بما يهدد التمييز الذي أقامه تيرنس بارسونز.

71- يقتسم الكثير منا بعض الحدوس غير المبررة غالبا فيما يتعلق بالقيم الصدقية للجمل التي تخبر عن موضوعات لا توجد بجل أنواعها. فربما لا ينفي أحد صدق القول «بيغاسوس حصان مجنح أسطوري» بينما يقضي بكذب القول «بيغاسوس إنسان آلي أسطوري». هذا ما يجعل نظرية بارسونز والنظريات المينونغية غالبا ما تكون في موقع قوة عندما تستدعي إلى الخلاف الدلالي الإحالة على موضوعات لا توجد، بخلاف النظريات التي تنكر هذه الموضوعات وتنكر الإحالة على الألفاظ الدالة عليها إذ يضعها ذلك أمام صعوبات في مواجهة حدوس من النوع المذكور آنفا.

72- Parsons, Referring to nonexistent objects, op. cit., p. 97

فهل يمكننا حقا التمييز بين «الملك الحالي لفرنسا» والمربع الدائري»، وبأي معيار نفعل؟ ما الذي يلجئنا إلى القول بفشل الأول في الإحالة بينما نقر للثاني بالإحالة على موضوع غير موجود؟ ربما كان السبب الوحيد في ذلك تداولي ضيق، وهو أن لفظ «الملك الحالي لفرنسا» قد نشأ في الأصل لتمثيل غياب الإحالة وقد رافقته وظيفته هذه عند كل استعمال بينما نشأ لفظ «المربع الدائري» بادئ الأمر لتمثيل إمكانية الإحالة على ما لا يوجد وبقيت له هذه الوظيفة عند كل استعمال، ولكن دون أن تكون هناك اعتبارات دلالية خالصة نبتُّ بها في نجاح الإحالة من عدمه ومن ثم نبتُّ بها في إفادة المعنى (الصدق أو الكذب) من عدمه، بل إن ذلك يخالف حتى مفهوم «الموضوع» مثلما نحته مينونغ. وإذ يتضح أن مجرد الاعتبارات التداولية لا تكفي لتحديد معايير نجاح الإحالة من فشلها، تتضح حاجتنا إلى قوانين دلالية ومنطقية ترسم الحدود بين الأمرين، وربما كان ما يعرف بـ«المنطق الحر Free logic» كفيلا بإنجاز هذه المهمة، وهو الذي يعرِّفه أحد منشئيه بأنه **منطق متحرر من اعتبارات الوجود واللاوجود فيما يتعلق بألفاظه، عامة (أو كلية) كانت تطلق على كثيرين أم مفردة تطلق على موضوعات أفراد أو جزئيات.**[73]

73- Karel Lambert, “On the philosophical foundations of free logic”, *Inquiry: An Interdisciplinary Journal of Philosophy*, volume 24, No. 2, 147-203

قائمة المصادر:

1- Chisholm, Roderick M. "Beyond Being and nonbeing", *Philosophical Studies* 24 (1973), 245-257

2- _____. "Ontological Entities", *Philosophy and Phenomenological Research*, Vol. 54, No. 3 (Sep., 1994), pp. 499-507)

3- Frege, Gottlob. "Sense and Reference", *The Philosophical Review*, Vol. 57, No. 3 (May, 1948), pp. 209-230

4- Goodman, Nelson and Quine, W. V. "Steps Toward a Constructive Nominalism", *The Journal of Symbolic Logic*, Vol. 12, No. 4 (Dec., 1947), pp. 105-122
5- Hintikka, Jaako. "Are there nonexistent objects? Why not? But where are They?", *Synthese* 60 (1984), 451-458

6- Kripke, Saule. *Philosophical Troubles*, Collected Papers, Volume 1. Oxford: Oxford University Press, 2011

7- Lewis, David. "Truth in Fiction", *American Philosopher Quarterly*, Volume 15, Number 1 (January 1978), 37-46

8- Lambert, Karel. "On the philosophical foundations of free logic", *Inquiry: An Interdisciplinary Journal of Philosophy*, Volume 24, No. 2 (1981), 147-203

9- Meinong. Alexius. "The theory of objects", (translated by Isaac Levi, D. B. Terrell, and Roderick M. Chisholm), In: *Realism and The Background of Phenomenology*, ed. Chisholm, Roderick M. Illinois: The Free Press of Glencoe, 1960, 76-117

10- Parsons, Terence. "A prolegomenon to Meinongian Semantics", *The Journal of Philosophy*, Vol. 71, No. 16 (Sep. 19, 1974), 561-580

11- _____. "Referring to nonexistent objects", *Theory and Decision* 11 (1979), 95-110

12- _____. "Are there nonexistent objects?", *American Philosophical Quarterly*, Vol. 19, No. 4, October 1982, 365-371

13- Priest, Graham. *Creating Non-Existents, Truth in Fiction*, Ed. Franck Lihoreau, Ontos Verlag, Frankfurt, Paris, Lancaster, New Brunswick, 2011

14- Quine, Willard V. "On What There Is", *The Review of Metaphysics*, Vol. 2, No. 5 (Sep., 1948), 21-38

15- _____. *Ontological relativity and other essays*. New York: Columbia University Press, 1969

16- _____. *Mathematical logic*, Revised edition, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1981

17- Russell, Bertrand. "On Denoting", *Mind, New Series*, Vol. 14, No. 56 (Oct., 1905), 479-493

18- _____. *The Philosophy of Logical Atomism*, London and New York: Routledge, 2009

19- Ryle, Gilbert. "Systematically Misleading Expressions", *Proceedings of the Aristotelian Society*, New Series, Vol. 32 (1931 - 1932), pp. 139-170

20- Wittgenstein, Ludwig. *Tractatus Logico-Philosophicus*. translated by C. K. Ogden. London: Routledge, 1981

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023